﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَـٰدًا فِى سَبِيلِى وَٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِى ۚ تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْ ۚ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ۝١﴾ [الممتحنة: 1]

❁ مناسبة مفتتح السورة لخاتمة ما قبلها:

حـرمـة المـولاة والـتـودّد إلى من لـم يعترف بـصـفـات الـلـه المجيد

اختُتمت سورة الحشر بالتمجيد، وعدّدت من صفات الله الولي الحميد، فقال تعالى: ﴿لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٢٤﴾ [الحشر: 24]، فأظهر مَطلعُ سورة الممتحنة تحذيرًا للمؤمنين من اتّخاذ أولئك الّذين كفروا بأسماء الله تعالى وصفاته أولياء[1]، وحرّمَ التودّد إليهم، حتى لو أظهروا الولاء الكاذب.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿تُلْقُونَ﴾: أصلُ الكلمة يدورُ على تحصيلٍ بالمقابلة بالحسِّ أو بالبصيرة[2]، ويفيدُ اللَّفظُ معنى القوَّةِ في التَّحصيل. ومنه اللِّقاءُ والمُلاقاةُ الَّتي هي: تَوافي الاثنين مُتقابلين[3]. وأصلُ الإلْقاء: طرحُ الشّيء حيث تلقاه؛ أي: تراه، ثمَّ صار في التّعارفِ اسمًا لكلِّ طرح[4]. ومنه الاستلقاءُ؛ لأنَّ فيه انبطاحًا[5]. والإلقاءُ: إيصالُ الشّيء بقوَّة إلى من يستقبله؛ أي: يلقاهُ ويجده[6]. فالإلقاءُ عبارةٌ عن إيصالٍ

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 515.
(2) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي: (لقي).
(3) ابن منظور، لسان العرب: (لقي).
(4) الرّاغب، المفردات: (لقي).
(5) الأزهري، تهذيب اللغة: (لقي).
(6) الرّاغب، المفردات: (لقي).

تامٍّ. والتَّلَقّي: استقبالُ ما يُلْقَى. ومعنى ﴿تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ﴾: توصِلون مودَّتكم إليهم[1]، وتُرسِلونها إليهم[2].

2) ﴿بِٱلْمَوَدَّةِ﴾: الوُدُّ: محبّة الشّيء، وتمنّي حصولِهِ في المستقبل[3]، وأُطلق الودُّ على الأُلْفةِ بين القلوب. والوُدُّ: الحُبُّ المجرَّدُ من غيرِ تمنّي حصول شيءٍ؛ ووَدَّ الشّيءَ يَوَدُّ وُدًّا بتثليث الواو، و ودادةً: أحبَّه. والوَدودُ: المُحِبُّ. والوَدودُ في أسماءِ اللّهِ ﷻ: المُحِبُّ لِعبادِه. وتوَدَّدَ إليه: تَحَبَّبَ[4]. وتوَدَّدَهُ: اجْتَلَبَ وُدَّه[5]؛ كما يُطلَقُ الوُدُّ على أسبابِ المحبَّة من النَّصيحة ونحوِها من جميعِ مداخلِ الخيرِ[6]، ومنه قولُهُ تعالى: ﴿تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ﴾؛ أي: تُلقون إليهم بالكتاب والنَّصيحةِ؛ لاجتلابِ محبَّتِهم.

3) ﴿تُسِرُّونَ﴾: يَدورُ أصل كلمةِ (سرّ) على إخفاءِ الشّيء[7]. وأصلُهُ من: سَرَّ الزَّنْدَ يَسُرُّهُ سَرًّا، وذلك إذا كانَ أَجْوَفَ فَجعل في جَوْفه عودًا ليَقْدَحَ بِهِ[8]، سُرَّ زَنْدَكَ؛ أي: احشُهُ ليَرِيَ. ومنه سُرَّةُ البطن، وهي ما يبقى بعد القَطع، وذلك لاستتارِها بعُكَنِ البطن[9]. والإسرارُ خلافُ الإعلان. والسِّرُّ: هو الحديثُ المُكتتَمُ في النّفس، كأنَّه أُخْفِيَ في الجوف بعُمق. وسارَّهُ: إذا أوصاه بأنْ يسرّه. وأسْرَرْتُ إلى فلان حديثًا: أفضيتُ إليه في خِفْيةٍ[10]. والسُّرورُ: ما يَنْكَتِمُ من الفرح. و﴿تُسِرُّونَ﴾ في الآية بمعنى: تُخفون أقوالَكم الدّالَّةَ على مودَّتِهم.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

افتَتَحَتِ السّورةُ الكريمةُ نداءَ المؤمنينَ بنَهْيِهم عن موالاةِ أعداءِ اللّه، قائلةً: يا أيُّها الَّذين آمنوا، لا تتَّخِذوا عدوّي وعدوَّكم أنصارًا، تَتَوَدَّدونَ إليهم، وقد كفر هؤلاء المشركون

(1) الشّربيني، السّراج المنير: 8/ 235.
(2) المراغي، تفسير المراغي: 20/ 60.
(3) الرّاغب، المفردات: (ودد).
(4) ابن سيده، المحكم والمحيط الأعظم: (ودد).
(5) ابن منظور، لسان العرب: (ودد).
(6) ابن سيده، المحكم والمحيط الأعظم، والرّاغب، المفردات: (ودد).
(7) ابن فارس، مقاييس اللغة: (سر).
(8) الأزهري، تهذيب اللغة: (سرَّ).
(9) الأزهري، تهذيب اللغة، والراغب، المفردات: (سرَّ).
(10) الرّاغب، المفردات: (سرر).

موالاةُ الكافرين الـصّـادّيـن عن ديـنِ الله تعالى مُنافيةٌ للإيمان

الَّذين نَهَيتُكُم أنْ تتَّخذوهم أولياءَ بما جاءَكم من عندِ اللّه من الحقِّ، ثمَّ أشارَتْ إلى أنَّه لم يَكْفِهم ذلك حتَّى آذَوُا المؤمنين؛ تنبيهًا إلى قطعِ العلائقِ معهم رأسًا، بسبب أنّهم يُخرجونَ رسول اللّهَ ﷺ ويُخرجونكم من دياركم وأرضكم؛ لِأنّكم آمنتم باللّه ربِّكم، إنْ كنتم خرجتم من دياركِم، فهاجرتم منها إلى مُهاجَرِكم للجهاد في سبيل اللّه، وطلبًا لنيل رضوانِه فلا تتَّخذوا الكفّار أولياء. تتودَّدون إلى الكفّار بمناصحتِهم بالسِّرِّ وأنا أعلمُ منكم بما أخفيتم وما أعلنتم. ثمَّ توعَّدَ من يفعلُ ذلك وشدَّد النَّكير عليه، فأخبرَ أنَّه مَنْ يفعلْ ذلك منكم أيُّها المؤمنون فقد جارَ عن قصد السّبيل الَّتي جعَلَها اللّه طريقًا إلى الجنَّة ومَحَجَّةً إليها[1].

قال الواحديُّ: "قال المفسِّرونَ: إنَّ الآيةَ نزلت في حاطِبِ بنِ أبي بلتعةَ، حينَ كتَبَ إلى مُشركي قُرَيشٍ يُخبِرُهم بمَسيرِ النَّبيِّ ﷺ إليهم لَمّا قصَدَ فتْحَ مكَّةَ؛ يَنهاهُ اللّهُ عن موالاةِ الكفّارِ"[2].

وجاء في سبب نزول الآية: أنَّ مُغنّيةً ونائحةً كانت بمكَّةَ أتَتِ المدينةَ تشكو الحاجةَ، فأمَرَ رسولُ اللّه ﷺ بني عبد المطَّلبِ أن يُعطوها ما يَدفَعُ حاجتَها، فأعطَوْها نفقةً وكسوة وحملوها، فجاءها حاطبُ بنُ أبي بلتعةَ (مولى عبدِ اللّه بنِ حميدِ بن عبد العُزّى) فأعطاها عشرةَ دنانيرَ، وكتب معها كتابًا إلى أهلِ مكَّةَ يُحذِّرُهم من أنَّ رسول اللّه ﷺ يتهيَّأُ لقتالِهم، وأخبرهم بمسيرِ رسول اللّه ﷺ إليهم؛ ليتَّخِذَ بذلك يدًا عندهم، لا شكًّا ونفاقًا، وأرسله مع تلك المرأةِ، فأُخبِرَ النَّبيُّ ﷺ بشأنِه، فأرسَلَ إلى المرأة بعضَ الصّحابة قبل وصولِها وأخذوا منها الكتاب، وعاتَبَ رسولُ اللّه ﷺ حاطبًا، فاعتذر رضي الله عنه بعُذرٍ قَبِلَهُ النّبيُّ

(1) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 23/ 310، والبيضاوي، أنوار التّنزيل: 5/ 204، والمراغي، تفسير المراغي: 28/ 63.

(2) الواحدي، الوسيط: 4/ 282.

ﷺ[1]، والعبرةُ بعمومِ اللَّفظِ لا بخصوصِ السَّبب، فهي دالَّةٌ على حُرمةِ الإسرارِ بالمودَّةِ لغير المؤمنين فضلًا عن موالاتِهم.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

بلاغةُ النِّداء ودلالتُهُ:

آثَرَ النَّظمُ الكريم التَّعبيرَ بأسلوب النِّداء في قولِه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾؛ لتنبيهِ المخاطَبين إلى أمرٍ عظيم، وهو النَّهيُ عن اتِّخاذ عدوِّ اللّه وعدوِّ المؤمنين أولياءَ، وللإشارةِ إلى خُطورةِ مضمون النّداء، وأنَّه ممّا ينبغي إعلانُهُ وإشهارُهُ بين المؤمنين؛ كي يجتنبوا موالاتَهم ولا يقتربوا منها.

النِّداءُ تنبيهٌ على المعاني، وإشارةٌ إلى خُطورةِ المَضامين

دلالةُ التَّعبيرِ بالاسمِ الموصول:

استعمَلَ النّظمُ الكريم الاسمَ الموصولَ - وهو ﴿ٱلَّذِينَ﴾ المُعبَّرُ به عن العقلاء - لإفادةِ العموم؛ فالخطابُ في قوله: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ عامٌّ لجميعِ المؤمنين تحذيرًا من إتيان مثلِ فعلِ حاطبِ بن أبي بلتعةَ[2]، والخطابُ وإن كان سببُ نزوله خاصًّا إلّا أنّه دالٌّ على العموم.

الخِطابُ لعمومِ المؤمنين وإنْ كان سببُهُ خاصًّا

دلالةُ استعمالِ لفظِ الإيمانِ في صلةِ الموصول:

أفادَتْ صلةُ الموصول ﴿ءَامَنُواْ﴾ بيانَ وجهِ ابتناءِ الخبر؛ فالاتِّصافُ بالإيمان هو السّببُ الدّاعي إلى الانكفافِ عن اتّخاذِ عدوّ اللّه تعالى وعدوّ المؤمنين أولياءَ؛ فكأنَّه قال: اعملوا بمقتضى إيمانِكم، فلا تتَّخِذوا عدوّي وعدوَّكم أولياء.

الاتِّصافُ بالإيمانِ علَّةُ البراءةِ من الأعداء

كما أفادَ التَّعبيرُ بالصِّلة تعظيمَ شأنِ الإيمان ومدحَ المخاطبين؛ لاتِّصافِهم بالإيمان.

ويُلمَحُ في الخطابِ بوصف الإيمان مع اعتبارِ سبب نزول الآيةِ مُعاتَبةُ الصّحابيِّ حاطبٍ ﷺ على فعلِه؛ لدخولِهِ في وصف الإيمان.

(1) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 23/ 131، وما بعدها، والبغوي، معالم التّنزيل: 5/ 69.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 28/ 133.

نكتةُ التَّعبيرِ بصيغةِ الماضي:

التَّشريفُ بما كان، والمدحُ بما سيكون

جاءَ التَّعبيرُ بصيغة الماضي في قولِه تعالى: ﴿ءَامَنُواْ﴾؛ للإيذانِ بتحقُّقِ الإيمانِ من المخاطَبين، فالمقصودُ الإخبارُ بوقوعِ الإيمانِ تشريفًا لهم بما كان، وبيانُ تحقُّقِهِ في القلوبِ مدحًا لهم بما سيكون، وأنَّ مَن تحقَّقَ إيمانُهم لا ينبغي لهم أن يَتَّخِذوا عدوَّ اللّه وليًّا. ففي التَّعبيرِ بصيغة الماضي إيماءٌ إلى الحثِّ على العملِ بمقتضى الإيمانِ؛ مِن ولايةِ مَن اتَّصَفَ بالإيمانِ، ومعاداةِ من عاداه.

دلالةُ النَّهيِ في قوله: ﴿لَا تَتَّخِذُواْ﴾:

قطعُ ولايةِ الكفّارِ على الفَوْرِ، والتَّحذيرُ مِنها في المستقبل

أفادَ استعمالُ ﴿لَا﴾ النّاهية في قوله تعالى: ﴿لَا تَتَّخِذُواْ﴾ طلبَ تركِ اتِّخاذ عدوِّ اللّه وليًّا على الفور، والتَّعجيلَ المقطوعَ به، وفي النَّهي تحذيرٌ للمؤمنين من هذا الاتِّخاذ.

بلاغةُ التَّعبيرِ بالنَّهيِ دونَ الأمر:

التَّنبيهُ على حُرمةِ ابتداءِ الموالاةِ في الحاضرِ، مع شُمولِ النَّهيِ الزَّمنَ الماضي

آثر النّظمُ الكريم التَّعبير بأسلوب النَّهي في قوله تعالى: ﴿لَا تَتَّخِذُواْ﴾ دون أسلوب الأمر؛ للإتيانِ بالفعل المضارع الَّذي يُفيدُ التّجدُّدَ والحدوثَ، و﴿لَا﴾ النّاهيةُ تفيدُ طلبَ تركِ الاتّخاذ ابتداءً، وتركَ الاستمرارِ فيه إنْ وُجد، فالأسلوبُ دالٌّ على الماضي والاستقبال، بخلافِ أسلوب الأمر، فلو قيل: عادوا أعداءَ اللّه تعالى، أو تبرَّؤوا من أعداءِ اللّه لدلَّ على زمانٍ واحد وهو المستقبل، كما أنَّ المطلوبَ تركُ اتِّخاذِ الأعداء أولياءَ، لا إنشاءُ العداوةِ ابتداءً.

براعةُ النَّهيِ عن الاتِّخاذِ دونَ النَّهيِ عن الموالاة:

النَّهيُ عن الاتِّخاذِ نهيٌ عن الفعلِ ومُقدِّماتِهِ ومُلابساتِه

آثرَ النَّظمُ الكريم استعمالَ مُفردةِ الاتِّخاذِ دون أن يقولَ: (لا توالوا) مع أنَّها أوجزُ لفظًا؛ لِما يَحويهِ فعلُ الاتِّخاذِ من الدَّلالةِ البلاغيَّةِ العالية، فأصلُ الفعل ﴿تَتَّخِذُواْ﴾ مِنَ الأَخْذِ الَّذي هو في الحقيقةِ بمعنى تناوُلِ الشَّيءِ الَّذي يكون بعيدًا عنك، ويُقصَدُ به الأخذُ المجازيُّ، وهو التّلبُّسُ بالشَّيء وملازمتُهُ بعدَ السَّعي في

تحصيلِه؛ ليفيدَ التّنبيه على أنَّ مَن تقرَّبَ من أعداء اللّه يوشكُ أن يتلبَّس بموالاتِهم ويسعى في تحصيلِها، فالنَّهيُ عن اتِّخاذ الأعداء أولياءَ أبلغُ من النّهي عن موالاتِهم؛ لأنَّهُ نهيٌ عن الفعلِ، وأسبابِه، وملابساتِه، ومقدِّماتِه، وهو ما يدلُّ على خُطورةِ موالاةِ أعداءِ الأمّةِ مِن أهل الملَّة المحمَّديَّة.

دلالةُ صيغةِ الافتعال ﴿تَتَّخِذُواْ﴾:

لمّا كان السّياقُ في بيانِ النَّهي عن موالاةِ أعداء الدّين من الكافرين كان في التَّعبير بصيغةِ الافتعال في الفعل ﴿لَا تَتَّخِذُواْ﴾ دلالةٌ على التَّكلُّف في هذا الاتِّخاذِ والمبالغةِ فيه؛ ليفيدَ أنَّ اتِّخاذَ عدوِّ اللّه وعدوِّ المؤمنين أولياء لا يكونُ إلّا بتكلُّفٍ وجهدٍ، فهو مُصطَنَعٌ مُفتعَلٌ؛ لمخالفتِه لوصفِ الإيمان الَّذي ليس فيه كُلْفةٌ على النَّفس، فالنَّهيُ ليس عن التَّكلُّف، بل عن الاتِّخاذ الَّذي لا يكون إلّا بالتَّكلُّف.

الأفعالُ المُخالِفةُ لفِطْرةِ الإيمانِ كُلْفةٌ على العُقولِ والقلوبِ والأبدان

نكتةُ التَّعبيرِ بمُفردةِ ﴿عَدُوِّى﴾:

لمّا كان لفظُ (العدوِّ) يدلُّ على تَجاوُزٍ في الشَّيءِ وتقدُّمٍ لِما ينبغي أنْ يُقتصَرَ عليه[1] أفادَتْ مُفردةُ ﴿عَدُوِّى﴾ اتِّصافَ عدوِّ اللّه وعدوِّ المؤمنين بالظُّلم؛ لتجاوُزِهم ما ينبغي أن لا يفعلوه، والمعاداةُ تقتضي التَّباعُدَ عنهم لا الاقترابَ منهم والإلقاءَ بالمودَّة إليهم، فجَمَعَ لفظُ (العدوِّ) الدَّلالةَ على الظُّلم الصّادر عن الأعداء، وضرورةِ تجاوُزِهم، وعدمِ الاقترابِ من مودَّتِهم.

مفرداتُ القرآنِ تَحمِلُ دَلالاتٍ فرعيَّةً مَلحوظةً في السّياق

دلالةُ إضافةِ لفظةِ (عدوّ) إلى الضَّمير:

أُضيفَ لفظُ (عَدوّ) إلى الضَّميرِ العائد إليه تعالى في قوله تعالى: ﴿عَدُوِّى﴾ تهويلًا لشأنِ عداوتِهم - فهم يُعادون اللّه تعالى - وتقريرًا لعداوتِهم، وتغليظًا لجُرمِهم[2].

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات: (عدا).

(2) السّمين الحلبي، الدّر المصون: 10/ 297، والآلوسي، روح المعاني: 14/ 260.

نكتةُ وُرودِ لفظةِ (عدوّ) على صيغةِ المصدر:

تـصـويـرُ شـدَّةِ العداوةِ الصّادرةِ عن الكافرين

آثر النّظمُ الكريم التّعبيرَ بصيغة ﴿عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ﴾ دون أن يُقال: (أعدائي وأعداءكم)؛ لأنَّ (عَدوّ) وصفٌ ضارَعَ الاسمَ، وهو على وزنِ فَعولٍ بمعنى فاعِلٍ، مِنْ عَدا يَعدو. وهو في الأصلِ على زنةِ المصادِرِ كقَبولٍ ونحوِهِ، فعومِلَ معاملةَ المصدر، فوقَعَ لفظُ (العدوِّ) على الواحدِ والمثنّى والجمع والمؤنّث والمذكّر[1]، قال سبحانه: ﴿فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ﴾ [الشُّعراء: 77]، وقال سبحانه: ﴿فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ﴾ [النِّساء: 92]، والمصادرُ أبلغُ من صيغةِ الجمعِ - لاشتمالِها على الجمعِ وزيادةٍ - في تصويرِ شدَّةِ عداوتِهم، فهم العداوةُ نفسُها.

بلاغةُ إيهامِ التَّكرار:

تهييجُ المؤمنين على الـبَراءةِ مِن عَدوِّهم

لسائلٍ أن يسألَ عن نكتةِ عطفِ (عدوَّكُم) على ﴿عَدُوِّى﴾، ومقتضى الظّاهر أن يُكتفى بالمعطوفِ عليه؛ لأنَّ عَدوَّ اللّهِ إنَّما هو عَدوُّ المؤمنينَ!

والجوابُ: أنَّ مَن كان عدوًّا للّه كان عدوًّا للمؤمنين بالتَّلازُم، لكنَّه لمّا كان في مَقامِ النّهي - والنّهيُ يتطلَّبُ التَّنْفيرَ من المَنْهيِّ عنه - ناسَبَ ذكرُ عدوِّ المؤمنين؛ لِما فيه من تهييجِ المؤمنين على مُعاداةِ عدوِّ اللّه تعالى[2] وعدوِّهم.

دلالةُ إضافةِ لفظةِ (عَدوّ) إلى ضميرِ خطابِ المؤمنين:

الـعـداوةُ الحقيقيَّةُ الَّتي تُـقـطَـعُ بـها العلاقاتُ عَداوةُ الدّينِ والإيمان

أفادَتْ إضافةُ لفظةِ (عدوّ) إلى الضّمير العائد إلى المخاطبين بوصف الإيمان ﴿وَعَدُوَّكُمْ﴾ أنَّ المرادَ من العداوة في قوله تعالى: ﴿عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ﴾ العداوةُ في الدّين، فالإضافةُ بمعنى اللّام؛ أي: عدوٌّ لكم، ويُقرِّرُ هذا المعنى أنَّ الإضافة لمّا كانت على معنى الاختصاصِ، وكان أمرُ الدّين والرّسالة مختصًّا باللّه تعالى أفادَ

(1) الزّمخشري، الكشاف: 4/ 512، والعليمي، فتح الرّحمن: 7/ 24.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 516.

أنَّ التّقديرَ: لا تتّخذوا عَدوَّ ديني، أو رَسولي[1]. فالمرادُ من العداوةِ التَّجاوُزُ في أصولِ الدّين ورسالةِ رسولِه ﷺ.

دلالةُ عطفِ (عَدوَّكُم) على ﴿عَدُوِّى﴾:

أفادَ عطفُ (عَدوَّكُم) على ﴿عَدُوِّى﴾ تشريكَ المعطوف والمعطوف عليه في الحكم؛ أي: في النَّهي عن اتِّخاذِهم أولياءَ، ولمّا كان مجيءُ المتعاطفين يفيدُ في الأصلِ أنَّ المعطوف أقوى وأهمُّ من المعطوف عليه من حيث السّببُ قدَّم ﴿عَدُوِّى﴾ على (عَدوَّكُم)؛ ليكون ذكرُ المعطوفِ أدعى إلى الامتثال والإذعان، مع ما في التَّعبيرِ بعداوة المؤمنين مِن إلهابٍ لهم على ترك الاتّخاذ المذكور؛ فقُدِّم السّببُ الأهمُّ والأعمُّ الَّذي هو الأصلُ؛ لأنَّ عداوةَ العبدِ لله هي الأصلُ، وهي أشدُّ قُبحًا، وقُبحُها في أنَّهم عَبَدوا غيرَ خالِقِهم، وشكَروا غيرَ رازِقِهم، وكذَّبوا رُسُلَ ربِّهم وآذَوْهم؛ فتقديمُه يؤكِّدُ أنَّه هو السَّببُ في العداوةِ بينَ المؤمنينَ والكافِرين؛ فإنَّ العداوةَ بين المؤمن والكافر بسبب الإيمانِ باللّه وتوحيده، وما كان سببًا فحقُّه التَّقديمُ[2]، ثمَّ عطَفَ ما يُقوّي السّببَ ويزيدُه تقريرًا فقال: ﴿وَعَدُوَّكُمْ﴾.

عَداوةُ المشركين للهِ تعالى هي السَّببُ الحقيقيُّ في البَراءةِ منهم

وفي عطفِ (عَدوَّكُم) على ﴿عَدُوِّى﴾ إيماءٌ إلى أنَّ ولايةَ أعداء اللّه تعالى ومصافاتَهُم معاداةٌ للّهِ سبحانه، على حدِّ قولِ الشّاعر:

إذا صافى صديقُكَ مَن تُعادي *** فقدْ عاداكَ وانْقَطَعَ الكلامُ[3].

بلاغةُ استعمالِ مفردةِ ﴿أَوْلِيَآءَ﴾:

آثرَ النّظمُ الكريم استعمالَ مفردة ﴿أَوْلِيَآءَ﴾ - وهي المفعولُ الثّاني لفعل ﴿تَتَّخِذُواْ﴾ - ليكونَ هو محطَّ النّظر في النّهي، ولمّا كان

مُتَّخِذُ الكافرين أولياءَ جامعٌ بينَ نُصْرتِهم ومودَّتِهم، وكلاهما مخالفٌ للإيمان

(1) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 28/ 134.

(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 516.

(3) البيت من بحر الوافر، وقد ذكره الثعالبيُّ في كتابه اللطائف والظرائف، ص: 148، ونسبه للإمام الشافعي رحمه الله، وفيه: وافى بدل صافى، وانفصل بدل انقطع، وقد ذكره كثير من المفسِّرين في معرض تفسير قوله تعالى: ﴿لا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ﴾ من دُونِ نسبةٍ لقائل معيَّن.

الخطابُ بوصف الإيمان في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ كان فيه إيذانٌ بمنافاة الإيمان لولايتهم؛ لأنَّ الولايةَ تقتضي النُّصرةَ، فلا يكونُ العبد من أهل الإيمان بنُصْرتِهم وموالاتِهم، كما أنَّ الولايةَ تدلُّ على المحبَّة، ومحبَّةُ أعداء الله تعالى وأعداء المؤمنين داخلةٌ في الحرمة؛ فدلَّ على أنَّ مَن يتَّصِفُ بالإيمان لا تبقى له صفةُ الإيمان إذا هو كان على ولاءٍ ومودَّةٍ لمَن كان عدوًّا لله وعدوًّا للمؤمنين[1]، فجمَعَ لفظُ ﴿أَوْلِيَآءَ﴾ بينَ ولاية النُّصرةِ وولاية المودّة والمحبّة، وهذا الَّذي يتّخِذُ الكافرَ وليًّا عادمٌ المروءةَ، وليس عنده من الحكمة نصيبٌ، فكيف يوالي أعداءَهُ الَّذين لا يريدون له إلّا الشَّرَّ؟! ويخالفُ ربَّهُ ووليَّه الَّذي يريدُ به الخير، ويأمرُهُ به، ويحثُّه عليه[2]!

براعةُ اختلافِ التَّقابُلِ في الصّيَغ:

خالَفَ النَّظمُ الكريم بين مفعولي الاتِّخاذِ من حيث الإفرادُ والجمع، فجاء المفعول الثّاني بصيغة الجمع ﴿أَوْلِيَآءَ﴾ دون (وليًّا)، والمفعول الأوَّلُ بصيغةِ المصدرِ المفردِ ﴿عَدُوِّى﴾ دون (أعدائي)؛ للإشارةِ إلى أنَّ مَن يتَّخِذُ عدوَّ الله وعدوَّ المؤمنين أولياءَ إنَّما يكونُ فعلُهُ بقصد التَّكثُّرِ بهم، كما أنَّ التّعبيرَ بصيغة الجمع ﴿أَوْلِيَآءَ﴾ هو الأوفقُ بالمقام؛ لِما تقتضيه الولايةُ من الكثرة والاجتماع.

التَّقابُلُ بينَ المصدرِ والجمعِ لبيانِ اتِّحادِ عَداوةِ الكافرين واختلافِ ولايتهم

وفيها دلالةٌ بديعةٌ، وهي أنَّ العدوَّ تجتمعُ كلمتُهُ على المؤمنين، فلذلك قال: ﴿عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ﴾ بصيغةِ الإفراد فيهما، بخلافِ موالاتِهم؛ فقد تَتَباينُ وتختلفُ، فجمعَ ﴿أَوْلِيَآءَ﴾ لأجلِ الإيماءِ إلى ذلك الاختلاف.

دلالةُ الطِّباقِ بينَ العَداوةِ والولاية:

في قوله تعالى: ﴿عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ﴾ طِباقٌ بين ﴿عَدُوِّى

(1) عبد الكريم الخطيب، التّفسير القرآني للقرآن: 14/ 891.
(2) السّعدي، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 854.

وَعَدُوَّكُمْ﴾ وبينَ ﴿أَوْلِيَآءَ﴾، وهو من طِباقِ التَّضادِّ، ومناسبةُ الطِّباقِ التَّنبيهُ على البَوْنِ بينَ الضِّدَّينِ، وأنَّه لا يمكنُ اجتماع الأمرين، وفيه إيماءٌ إلى التَّعجيب ممَّن يَجمَعُ بينَهما فيتَّخِذُ عدوَّ اللّه وعدوَّ المؤمنين أولياء! فكأنَّه ارتكَبَ ما لا يمكنُ حصولُهُ؛ لامتناعِ اجتماعِ الضِّدَّينِ بمقتضى الحكمة! فيكونُ استحقاقُهُ العقوبةَ بسببِ الاتِّخاذ المذكور في غايةِ الحكمةِ والعدلِ كذلك.

مَـن جَـمَـعَ بينَ الضِّدَّينِ وانتظَرَ الـنَّـجـاةَ فقد جَمَعَ على نفسِه الغَفْلةَ والهَلاك

نكتةُ النَّهيِ عن موالاةِ العدوِّ والعَداوةُ مُنافيةٌ للمودَّة:

لمّا كانت العداوةُ والولايةُ على الضِّدِّ، ولا يمكنُ اجتماعُ الضِّدَّين نشَأ إشكالٌ في هذا النَّهي؛ فكيف يَنهى عن اتِّخاذِ العدوِّ أولياءَ في قولِه تعالى: ﴿لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ﴾، مع أنَّ العداوةَ مُنافيةٌ للمَحَبَّةِ والمَوَدَّة؟! والمحبَّةُ والمودَّةُ مِن لوازمِ اتِّخاذ الأولياء؟ فالنَّهيُ عن الجمعِ بين شيئين إنَّما يكون فيما يُتصوَّرُ اجتماعُهما!

الـطَّـمـعُ في تحقيقِ مَصالحِ الـدُّنـيـا يـقـودُ إلى الـتَّـنـاقـضِ بـيـنَ الإيـمـانِ والسُّلوك

والجوابُ أن يقال: الجمعُ بينهما باعتبارين، وذلك أنْ تكونَ العداوةُ بالنِّسبةِ إلى أمرٍ معيَّنٍ وهو الدّين، فالمعاداةُ باعتبارِ الإيمانِ، والمحبَّةُ والمودَّةُ بالنِّسبةِ إلى أمرٍ آخَرَ، وهو الرَّغبة والطَّمع في تحقيق المنفعة الدّنيويَّة والمصلحة الشّخصيَّة، فالمودَّة باعتبار الانتفاع بها في الدّنيا، ونظيرُ ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ﴾ [التّغابن: 14][1]؛ فإنَّ الأزواجَ والأولاد محبوبون بالفطرة والجِبِلَّة، وعداوتُهم بسبب دعوتِهم إلى ارتكابِ محرَّمٍ أو الإخلالِ بطاعةٍ أو مخاصمةٍ في أمرِ الدّين أو الدّنيا.

بلاغةُ الاستعارةِ في لفظةِ الإلقاء:

إلـقـاءُ المـودَّةِ لـعـدوِّ الـلـه جهلٌ وحماقةٌ وسفاهة

استَعمَلَ النَّظمُ الكريم مفردةَ الإلقاء؛ لدلالته في الحقيقةِ على رَمْيِ ما في اليدِ على الأرض وطرحِه، واستُعير لإيقاعِ الشَّيء مِن

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 516.

دونِ تدبُّرٍ في موقعِه، ففي قوله تعالى: ﴿تُلۡقُونَ﴾ استعارةٌ تصريحيَّةٌ، حيث شبَّهَ محاولةَ إيصالِ المودَّة من قِبَلِ المؤمنين إلى عدوِّهم بإلقاءِ شيءٍ مِن دونِ تدبُّرٍ أو حكمةٍ أو إدراكٍ، بجامع وضعِ الشَّيءِ في غير موضعِهِ في كليهما[1]، وقد جَرَتِ الاستعارةُ في لفظة الفعل ﴿تُلۡقُونَ﴾ فكانت تبعيَّةً.

والمعنى: تُظهِرون لهم المودَّةَ، وتسارعون في إيصالِها، وفي السَّعي بأسبابِها من غيرِ تأمُّلٍ في الأمر. والإلقاءُ بالمودَّة: بَذْلُها في صورةِ رسائلَ، أو هدايا، أو عواطفَ مِن الحبِّ والودِّ، مع بُعدِ الشُّقَّةِ النَّفسيَّةِ، ولهذا عُدّيَ الفعلُ بالباء؛ لتضمُّنِهِ معنى: تَبعَثون إليهم بالمودَّة[2].

مناسبةُ استعمالِ مفردةِ الإلقاءِ لسبب النُّزول:

إلقاءُ الرِّسالةِ يتضمَّنُ إلقاءَ المحبَّة

دلَّت مفردةُ ﴿تُلۡقُونَ﴾ على سرعةِ الإلقاءِ وخفّتِهِ وبُعْدِ المُلقي عن المُلقَى إليه، وهو المناسبُ لِما جاءَ في سبب نزول الآية؛ مِن أنَّ حاطبًا ألقى الرّسالة إلى المرأة بعيدًا عن أعيُنِ النّاس بخفَّةٍ وخفاء.

بلاغةُ احتمالِ جملةِ ﴿تُلۡقُونَ﴾ للحاليَّةِ أو النَّعت:

مآلُ مَن يتَّخِذُ أعداءَ الله أولياءَ التَّقرُّبُ إليهم وإلقاءُ المودَّة

تَحتَمِلُ جملةُ ﴿تُلۡقُونَ إِلَيۡهِم بِٱلۡمَوَدَّةِ﴾ أن تكون حالًا من ضميرِ الواو في ﴿تَتَّخِذُواْ﴾[3]؛ أي: لا تتَّخِذوهم أولياءَ مُلقينَ إليهم بالمودَّة، والحالُ هنا لازمةٌ غيرُ مُنفكَّةٍ، جاءت لبيانِ حالةٍ هي الغالبةُ من حالاتِ اتّخاذ عدوِّ اللّه وعدوِّ المؤمنين أولياءَ، فالحالُ من المنهيِّ – وهو فاعل ﴿تَتَّخِذُواْ﴾ – لا من النَّهي، كما أنَّ الحالَ بيانٌ لحادثةٍ وقعت، فلا يُقال: إنَّ المؤمنين نُهوا عن اتِّخاذِ عدوِّ اللّه وعدوِّ المؤمنين أولياءَ مطلقًا كما في قولِه تعالى: ﴿لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوۡلِيَآءَ﴾ [المائدة: 51]، وإنَّ التَّقييدَ بالحالِ يوهِمُ بدلالةِ المفهوم جوازَ اتِّخاذِهم أولياءَ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 28/ 134.
(2) عبد الكريم الخطيب، التّفسير القرآني للقرآن: 14/ 891.
(3) الزّمخشري، الكشاف: 4/ 512، والبيضاوي، أنوار التّنزيل: 5/ 402.

إذا انتفى قيدُ الحالِ[1]. لا يقال ذلك؛ لأنَّ الحالَ لمّا كانت لازمةً أفادَتْ لُزومَ إلقاءِ المودَّةِ إليهم عندَ اتِّخاذِهم أولياءَ، فلا يُتصوَّرُ اتِّخاذُهم أولياءَ مِن دونِ إلقاءِ المودَّةِ إليهم؛ للتَّلازُمِ بينَ الأمرين.

والغرضُ من مجيءِ الحالِ التَّعجيبُ من إلقائِهم إليهم بالمودَّة، وتقريرُ التَّعجيبِ ما دلَّ عليه طباقُ التَّضادِّ من الجمعِ بين عداوتِهم وولايتِهم. كما أنَّ جملةَ الحال لمّا جاءت بصيغةِ المضارع أفادَتْ تصويرَ الحالةِ؛ تقبيحًا لها، وتنويهًا بعلمِ اللّه تعالى بأدقِّ الخفايا.

كما تَحتمِلُ الجملةُ أن تكونَ صفةً لـ﴿أَوْلِيَآءَ﴾[2]، فتكون وصفًا كاشفًا للغالبِ مِن معنى ولايتِهم، فتكون صفةً لازمةً كذلك. وجملةُ ﴿تُلْقُونَ﴾ على الوجهين السّابقين في محلِّ نصبٍ. وتَحتمِلُ كذلك أن تكون بيانًا وتفسيرًا لمعنى اتِّخاذِهم أولياءَ[3]، ولا محلَّ لها من الإعراب حينئذٍ.

فائدةُ تقديمِ إلقاءِ المودَّةِ على الإسرارِ بها في النَّظم الكريم:

تقديمُ ما يَأْخُذُ حُكمَ العُمومِ على ما يَأْخُذُ حكمَ الخَطَرِ المُحدِق

بدَأ النّظمُ الكريمُ بذكرِ إلقاءِ المودة فقال: ﴿تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ﴾، ثمَّ ذكَرَ الإسرارَ بها فقال: ﴿تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ﴾؛ تنبيهًا بذكرِ ﴿تُلْقُونَ﴾ على ذمِّ مودَّة الأعداء جَهْرًا وسِرًّا؛ لأنَّ مفردةَ الإلقاء تعمُّ الجهرَ والسِّرَّ، وبذكرِ ﴿تُسِرُّونَ﴾ بعدها على تأكيدِ ذمِّها سرًّا، وخُصَّ ﴿تُلْقُونَ﴾ بالتَّقدُّمِ لعُمومِه[4]، فبدأ بما يكون سرًّا وجهرًا، ثمَّ ثنّى بما يكون سرًّا.

كما أنَّه بدأ بذكرِ المودَّةِ العامَّةِ الَّتي لا يَلوحُ منها صوتُ الإثم والخطر، ثمَّ ثنَّى بالمودَّةِ الخاصَّة الَّتي تكشِفُ حقائقَ الولايةِ الَّتي قد تُهدِّدُ المجتمعَ المسلم، وتُلحِقُ به الأذى.

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 10/ 152، والسّمين الحلبي، الدّر المصون: 10/ 297.
(2) الزّمخشري، الكشاف: 4/ 512، والبيضاوي، أنوار التّنزيل: 5/ 402.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 235، والقونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 19/ 42، وابن عاشور، التّحرير والتنوير: 28/ 134.
(4) زكريا الأنصاري، فتح الرّحمن، ص: 560.

نوعُ الباءِ ودلالتُها:

الـكـافـرُ ليس بعدوٍّ للمُنافقِ، بـل هـو عـدوٌّ للمُؤمنِ المُخلِص

أفادَت الباءُ في قوله تعالى: ﴿تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ﴾ تأكيدَ اتّصالِ فعلِ الإلقاء بمفعولِه، فهي صلةٌ، والمعنى: توصِلون إليهم المودَّةَ[1] وتُلْقونها إليهم، ولو قال: (تُلقونَ إليهم المودَّةَ) مِن دونِ الباءِ لَما دلَّ الفعل إلّا على طرحِ المودَّةِ وإلقائِها من بعيدٍ، فلمّا زيدَت الباءُ على المفعول، وكانت تدلُّ في أصلِها على الإلصاق دلَّ التّعبير بـ﴿تُلْقُونَ﴾ على معنى إلقاءِ المودَّة وإيصالِها إلى الملقَى إليه؛ ليُفيدَ أنَّ إلقاء المودَّة كان عن قربٍ مع إفادتِه معنى السّرِّ والخفاء، حيث تُلقى إليهم المودَّةُ في حالةِ بُعْدِ الشُّقَّةِ النَّفسيَّة الَّتي ينبغي أن تكون بين المؤمنين باللّه والكافرين به، وبُعْدِ الشّقَّة المكانيَّة حيث المؤمنون في المدينة، والمشركون في مكة، ومع ذلك تلقى إليهم المودَّة في كلا الحالين فيتلقَّفونها من غير أن يراها أحد[2]، وهو ما يُناسب ما جاء في سبب النّزول؛ من أنَّ حاطبًا أوصل كتابًا إلى امرأةٍ وأعطاها إيّاه خفيةً لتوصلَه إلى أهلِ مكّة، فإنَّ تسليمَها الكتابَ يدلُّ على الإلقاء بطريق المناولة؛ أي: عن قربٍ وخفيةٍ.

ويُحتمَلُ أن تكون الباءُ سببيَّةً[3]، ومفعولُ ﴿تُلْقُونَ﴾ محذوفٌ، والتّقدير: تلقون إليهم الحديثَ - ويدخلُ فيه ما يتعلَّقُ بأسرارِ الدّولةِ أو أخبارِ رسول اللّه ﷺ - بسببِ المودَّة بينكم وبين قرابتكم الَّذين معهم، وليس على معنى: بسبب مودَّة الكافرين وحبّهم؛ لأنَّ إلقاءَ حاطبٍ الكتابَ بسبب مودَّتِه للكافرين لم يقع؛ لأنَّ حاطبًا لم تحصل منه مودَّةٌ ومحبّة للكافرين، بدليل الخطاب في قولِه: ﴿وَعَدُوَّكُمْ﴾ الدّالِّ على إخلاصه؛ فإنَّ الكافر ليس بعدوٍّ للمنافق، بل هو عدوٌّ للمؤمن المخلِص، فلمّا سمّاه عدوًّا دلَّ على أنَّه باقٍ على إيمانِه[4].

---

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 235.

(2) عبد الكريم الخطيب، التّفسير القرآني للقرآن: 14/ 891.

(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 235.

(4) ابن عجيبة، البحر المديد: 4/ 212، والنيسابوري، غرائب القرآن: 6/ 291، والشربيني، السّراج المنير: 8/ 235، وإسماعيل حقّي، روح البيان: 9/ 473.

على أنَّ الباءَ تَحتمِلُ أن تكونَ للتَّعدية هنا، بتضمينِ ﴿تُلۡقُونَ﴾ معنى: (تُفضون)؛ أي: تُفضون إليهم بالمودَّة، والفعل (أفضى) يتعدَّى بالباء[1].

نكتةُ تعريفِ لفظةِ (المَوَدَّةِ) بـ(أل) دونَ الإضافة:

جاء التَّعريفُ بأل دون الإضافة في قوله تعالى: ﴿بِٱلۡمَوَدَّةِ﴾، وهي تُفيد الجنسيَّة؛ فيلزمُ من اللَّفظِ استغراقُ جميع أنواع المودَّة، وسببُهُ الإشعارُ بأنَّ أيَّ إلقاءٍ لأيِّ مودَّةٍ هو بمثابةِ إلقاءٍ لجميعِ أنواع المودَّة، ومِن ذلك إيصالُ أسرارِ المُسلِمينَ إلى العدوِّ.

كـلُّ مـودَّةٍ مِن شأنِها مـوالاةُ أعداءِ الله تعالى فـداخـلـةٌ في التَّحريم

وفي التَّعبيرِ بلفظ العُموم تقبيحٌ لإلقاء أدنى المودّة إلى الكافرين وإن كانت خاصَّةً، كما أنَّ الخطابَ جاءَ عامًّا، فناسب التّعبيرُ بلفظٍ عامٍّ، وهو أن يكون معرَّفًا بـ(أل)، ويجري الكلامُ نفسُهُ في قولِه تعالى: ﴿تُسِرُّونَ إِلَيۡهِم بِٱلۡمَوَدَّةِ﴾.

بلاغةُ جملةِ الحالِ ﴿وَقَدۡ كَفَرُواْ﴾ ببيانِ صاحبِها:

الواوُ في قولِه تعالى: ﴿وَقَدۡ كَفَرُواْ﴾ للحال[2]، وجملةُ ﴿كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلۡحَقِّ﴾ حالٌ من فاعلِ ﴿تَتَّخِذُواْ﴾، والمعنى: لا تتَّخِذوهم أولياءَ وحالُهم أنَّهم قد كفروا بما جاءكم من الحقِّ! وهي حالٌ مترادفةٌ إنْ أُعربت جملةُ ﴿تُلۡقُونَ﴾ حاليَّةً أيضًا، وتكون هذه الحالُ مقرِّرةً للنّهي، كما أنّها تُفيد معنى الاستبعاد والتّعجيب من اتّخاذِهم أولياء مع وجود هذه الحالِ منهم. أو هي حالٌ من فاعل ﴿تُلۡقُونَ﴾[3]، فتكونُ من الحال المتداخلة؛ أي: لا تتولَّوهم وأنتم تلقون بالمودَّة إليهم وهذه حالُهم! وفيها معنى الاستبعاد والتَّعجيب.

التَّعجيبُ ممَّنْ يـتَّـخِـذُ عـدوَّ الـلـه أولـيـاءَ، واسـتـبـعـادُ أنْ يـقـعَ ذلـك من مؤمن

(1) الآلوسي، روح المعاني: 14/ 261.
(2) الواحدي، التّفسير البسيط: 21/ 404.
(3) الزّمخشري، الكشاف: 4/ 512، والبيضاوي، أنوار التّنزيل: 5/ 204.

كما تَحتملُ الجملةُ أن تكون حالًا من المفعول الأوَّلِ ﴿عَدُوِّى﴾[1]؛ لتُفيدَ الحالُ زيادةً في التّعجيب من اتِّخاذِهم أولياء؛ أي: كيف تتولَّون عدوّي والحال أنَّهم قد كفروا بما جاءكم من عند الله من الحقِّ؟! فهذه الأوصافُ توجِب البغضاءَ والعداوةَ لا الولايةَ والنُّصرةَ، ففي مجيء الحال توبيخٌ شديد ووعيدٌ على من يفعل مثل هذا الفعل. كما يُحتمَلُ أن تكون الجملةُ حالًا من الضّمير في ﴿إِلَيۡهِم﴾[2] زيادةً في التَّعجيب من إلقاء المودَّةِ إليهم واستبعادًا لها كذلك.

دلالةُ حرفِ التَّحقيق:

أفاد حرفُ التّحقيق في قولِه تعالى: ﴿وَقَدۡ كَفَرُواْ﴾ تحقيقَ كفرِهم وتقريرَه؛ بمعنى: قد ثبت كفرُهم وتحقَّقَ، فالعجبُ أشدُّ العجبِ مِن تولّيهم أو موادَّتِهم؛ لتقرُّرِ كفرِهم بالحقِّ وتحقّقه.

مـوالاةُ ومـودَّةُ مَن تحقَّقَ كفرُهُ ومعاداتُهُ شيءٌ عُجاب

نوعُ الباء ودلالتُها:

الباءُ في قوله تعالى: ﴿بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلۡحَقِّ﴾ للإلصاق؛ لتُفيد إلصاقَ كفرِهم بما جاء المؤمنين من الحقِّ وعدمَ انفكاكِهم منه.

حقدُ الكافرين يَحمِلُهم على إنكارِ كلِّ أنواعِ الحقّ

دلالةُ التَّعبير بالاسمِ الموصول:

آثر النّظمُ الكريم استعمالَ الاسم الموصول (ما)؛ لإفادةِ العموم، فعبَّرَ بطريق الموصوليَّة؛ ليَشْمَلَ كُلَّ ما أتاهُمْ بِهِ الرَّسول ﷺ من القرآن والدّين على وجْهِ الإيجاز[3]، وقد دلَّتْ جملةُ صلة الموصول ﴿جَآءَكُم مِّنَ ٱلۡحَقِّ﴾ على مخالفة أعداء الله تعالى للحقِّ، وفيه إيذانٌ بتشنيع كفرِهم وبطلانِه؛ بمعنى: أنَّه كفرٌ بما ليس من شأنِه أن يكفُرَ به أحدٌ، لا سيّما طلّابُ الهدى؛ فإنَّ الحقَّ محبوبٌ مرغوب[4]. وفيه إقامةُ الدّليل على النَّهيِ عن اتّخاذ الكافرين

كلُّ حقٍّ مِن الله تعالى فالأعداءُ مخالفون له كافرون به

(1) ابن التّمجيد، حاشية على تفسير البيضاوي: 19/ 42 - 43، وابن عاشور، التّحرير والتنوير: 28/ 134.
(2) ابن التّمجيد، حاشية على تفسير البيضاوي: 19/ 42 - 43، وابن عاشور، التّحرير والتنوير: 28/ 134.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 28/ 134.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 28/ 134.

أعداءً؛ أي: جاء الحقُّ وثبَتَ لديكم، فلا تتَّخذوا مَن أنكروه وكفروا به أولياء.

بلاغةُ استعمالِ مفردةِ (جاءَ) دون (أتى):

الحقُّ هو الأمرُ الثّابتُ الَّذي لا شيءَ أعظمُ ثباتًا منه

استعملَ النّظم الكريم الفعلَ (جاءَ) في قولِه تعالى: ﴿جَآءَكُم مِّنَ ٱلۡحَقِّ﴾ دون الفعل (أتاكم من الحقِّ) مثلًا؛ لأنَّ الحقَّ فيه قوّةٌ وثباتٌ، فناسب التّعبيرُ بمفردة المجيء الَّتي تدلُّ على القوّة دون السّهولة؛ للإشعارِ بصلابة الحقِّ وقوّتِه وعِظَم شأنِه، فإنَّ الحقَّ هو الأمرُ الثّابت الكامل في الثّبات، الَّذي لا شيءَ أعظمُ ثباتًا منه[1].

ولهذا استعمل القرآنُ الكريم فعلَ (المجيءِ) مع (الحقِّ)، و(الإتيانِ) مع (الأنباء) في قوله تعالى: ﴿فَقَدۡ كَذَّبُواْ بِٱلۡحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمۡ فَسَوۡفَ يَأۡتِيهِمۡ أَنۢبَٰٓؤُاْ مَا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ۝٥﴾ [الأنعام: 5]، ولهذا لم يَرِدْ في القرآن في سياق التّعبير عن مجيء الحقِّ إلّا لفظُ المجيء، كقولِه تعالى: ﴿وَمَا لَنَا لَا نُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَمَا جَآءَنَا مِنَ ٱلۡحَقِّ﴾ [المائدة: 84]، وقولِه: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلۡحَقُّ مِنۡ عِندِنَا﴾ [يونس: 76]، وقولِه: ﴿حَتَّىٰ جَآءَ ٱلۡحَقُّ وَظَهَرَ أَمۡرُ ٱللَّهِ وَهُمۡ كَٰرِهُونَ ۝٤٨﴾ [التّوبة: 48]، وقولِه: ﴿وَقُلۡ جَآءَ ٱلۡحَقُّ وَزَهَقَ ٱلۡبَٰطِلُۚ﴾ [الإسراء: 81].

دلالةُ تعديةِ الفعلِ (جاءَ) إلى ضميرِ المخاطبين:

الحـقُّ يَـصِـلُ أهـلَـهُ قـاصـدًا إكرامَهم ومُريدًا تعظيمَهم

عُدّيَ الفعلُ (جاءَ) إلى ضمير المخاطبين، وهم الَّذين آمنوا بالحقِّ نفسِه، فقال: ﴿جَآءَكُم﴾، ولم يُعَدَّ بالحرف؛ فلم يقل: بما جاء إليكم؛ للإشارة إلى استغراق الحقِّ لهم واستيعابِه لهم بسبب إيمانِهم؛ ولأنَّهم الَّذين انتَفَعوا بذلك الحقِّ وتَقَبَّلوهُ؛ ففيه تصويرُ مجيءِ الحقِّ بأنَّه قصَدَهم دون غَيْرِهِمْ؛ فكأنَّ الحقَّ يَعلَمُ موضعَهُ الَّذي يجيءُ إليه فيَنتَفِعُ به.

(1) البقاعي، نظم الدّرر: 19/ 486.

وفي اختصاصِ المؤمنين بالحقِّ واستيعابِه لهم إيماءٌ إلى أنَّ كُفْرَ الكافرين به ناشئٌ عن حَسَدِهمُ الَّذينَ آمَنوا قَبْلَهُمْ. وفي ذَلِكَ إلْهابٌ لِقُلوبِ المُؤْمِنينَ؛ ليَحْذَروا مِنْ موالاةِ المُشْرِكينَ[1]. وتنبيهٌ إلى أنَّ موالاتَهم باطلةٌ، وليست من الحقِّ في شيءٍ.

بلاغةُ الاستعارةِ في لفظةِ ﴿ٱلْحَقِّ﴾:

تصويرُ المعاني بالقَرائنِ أرسخُ في بيانِها

في استعمالِ لفظِ الحقِّ في قوله تعالى: ﴿جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ﴾ استعارةٌ مكنيَّةٌ لطيفةٌ، فقد شُبِّه الحقّ - وهو أمرٌ معنويٌّ - بشيءٍ حسّيٍّ، وهو الشَّخصُ الَّذي يمشي على قدميه ويصلُ إلى الموضع المطلوب تحقيقًا لثبات الحقِّ، وتصويرًا لوُصولِه إلى الَّذين آمنوا ونيلِهم له، ثمَّ حُذِفَ المشبَّهُ به، وذُكِرَ شيءٌ من لوازمِه وهو المجيءُ.

دلالةُ جملةِ ﴿يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ﴾ بينَ الحالِ والاستئنافِ البيانيّ:

أعظمُ شناعاتِ المشركين إخراجُ أصحابِ الحقِّ بسببِ إيمانِهم

تَحتمِلُ جملةُ ﴿يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ﴾ أن تكون حالًا من فاعلِ ﴿كَفَرُواْ﴾[2]، فتكون من الحال المتداخلةِ؛ تشنيعًا عليهم، وتقريرًا للنّهي عن الاتّخاذ المذكور؛ أي: لا تتَّخِذوهم أولياءَ وحالُهم الكفرُ بما جاءكم من الحقِّ وهم في حالِ كفرِهم يُخرجون الرّسول وإيّاكم؛ ففيه لفتةٌ لطيفةٌ إلى أنَّهم بإخراجِهم الرَّسولَ ﷺ أخرجوا الحقَّ من عندِهم؛ ففي مجيءِ جملة الحالِ توبيخٌ لهم، وتجهيلٌ وتسفيهٌ لعقولِهم، وتقبيحٌ لفعلِهم؛ فهم لَمْ يَكْتَفوا بِكُفْرِهِمْ بِما جاءَ مِنَ الحَقِّ - مع أنَّ هذا وحدَهُ كافٍ في قطعِ كلِّ ولاءٍ بينكم وبينهم - فإنَّهم مع هذا تلبّسوا معه بإخراجِ الرَّسول ﷺ، وإخْراجِكُمْ مِنْ بَلَدِكُمْ[3].

كما تَحتمِلُ الجملةُ أن تكون استئنافًا بيانيًّا[4]، فتكون كالتَّفسيرِ لكفرِهم وفَرْطِ طُغْيانِهم، كأنَّه قيل: كيف كفروا بما جاءَهم من الحقِّ؟

(1) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 28/ 134.
(2) الزّمخشري، الكشاف: 4/ 512، والبيضاوي، أنوار التّنزيل: 5/ 204.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 28/ 135.
(4) الزّمخشري، الكشاف: 4/ 512، والبيضاوي، أنوار التّنزيل: 5/ 204.

فأجيب: بأنَّهم كفروا أشدَّ الكفرِ بإخراج الرّسول ﷺ والمؤمنين لإيمانِهم خاصَّةً لا لغرضٍ آخرَ[1]، فيكونُ إخراجُ الرّسول والمؤمنين عينَ الكفر على سبيل المبالغة[2]؛ تشنيعًا لفعلِهم، ولقصدِهم إخراجَ الحقِّ من عندِهم وكرهِهم له. وفيه تشريفٌ لقَدْرِ الإيمان عند الله تعالى، حتَّى جعَلَ إخراجَ المؤمنين من ديارِهم بسبب إيمانِهم كفرًا يستحقّون العقابَ لأجلِه.

نكتةُ التَّعبيرِ بصيغةِ المضارع ﴿يُخۡرِجُونَ﴾:

تفظيعُ إخراجِ المؤمنين من بلادِهم بسببِ إيمانِهم واتِّباعِهمُ الحقّ

عبَّرَ النَّظمُ الكريم عن إخراج المشركين للنَّبيِّ والمؤمنين بصيغةِ المضارع ﴿يُخۡرِجُونَ﴾؛ لاستحضارِ الصّورَةِ؛ أي: لاستحضار الحال الماضية؛ أي: جَعْلِها بصورة الحاضر، لِما فيه من مزيدِ الشّناعة لفعلِهم[3]؛ لأنَّ الجملةَ الفعليَّة ﴿يُخۡرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمۡ﴾ لمّا وقعتْ حالًا من ضمير ﴿وَقَدۡ كَفَرُواْ﴾ كانَ إخْراجُ الرَّسول ﷺ والمُؤْمِنينَ في تِلْكَ الحالَةِ عَمَلًا فَظيعًا، فَأُريدَ اسْتِحْضارُ صورَةِ ذَلِكَ الإخْراجِ؛ لِعظيمِ فَظاعَةِ اعْتلالِهِمْ لَهُ[4].

كما أنَّه لمّا كان المضارعُ يفيدُ تجدُّدَ الزّمن حالًا بعد حال أفادَ دوامَ أذاهم لَمَن آمَنَ المقتضي لخروجِه عن وطنه[5]، كما أفادَ أنَّ الكافرين مستمرّون على موقفِهم من النَّبيّ والمؤمنين، وأنَّه لو عاد النَّبيُّ والمؤمنون إلى ديارهم بمكَّةَ لأخرجهم المشركون منها، بما يلاحِقونهم به من أذًى وضرٍّ، كما أنَّ الكافرين لم يَزَلْ هذا موقفَهم من المؤمنين الَّذين كانوا في مكَّةَ، ولم تُتَحْ لهم فرصةُ الهجرة لسببٍ أو لآخر[6].

(1) الآلوسي، روح المعاني: 14/ 261.
(2) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 19/ 43.
(3) الشّربيني، السّراج المنير: 8/ 235، والآلوسي، روح المعاني: 14/ 261.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 28/ 135.
(5) البقاعي، نظم الدّرر: 19/ 487.
(6) عبد الكريم الخطيب، التّفسير القرآني للقرآن: 14/ 892.

دلالةُ إسنادِ الفعلِ ﴿يُخۡرِجُونَ﴾ إلى ضميرِ الجمع:

تَواطُؤُ الكافرين على إخراجِ المؤمنين، بسببِ عَداوتِهم للهِ وكُفرِهم بالحقّ

أُسنِدَ الفعلُ ﴿يُخۡرِجُونَ﴾ إلى ضمير الجمع العائدِ إلى ﴿عَدُوِّي﴾، والإخراجُ صَدَرَ عن بعضِهم لا عن جميعِهم؛ لِما اتَّصَفَ به من الحالِ في قولِه: ﴿وَقَدۡ كَفَرُواْ﴾؛ ليُفيدَ تواطُؤَهم جميعًا على إخراج الرّسول وإخراجِكم، بسبب عداوتِهم للّه تعالى ولكم، وبسببِ كفرِهم بالقرآن وبما جاء به رسولُ اللّه ﷺ؛ فلمّا كان جميعُهم راضينَ بما صدَرَ عن بعضِهم من أذى المؤمنين - وربَّما أغْرَوا سفهاءَهم - ناسَبَ إسنادُ الفعل إلى ضميرِ الجمع[1].

غرضُ تقديمِ ذكرِ ﴿ٱلرَّسُولَ﴾ على الضَّمير (إيّاكم):

تقديمُ الأصلِ هو الأصلُ، وبيانُ المقصودِ تفظيعٌ للمطلوب

ورَدَ النَّظم الكريمُ بتقديمِ ذكرِ الرّسول على الضّمير العائد على المؤمنين في قوله تعالى: ﴿يُخۡرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمۡ﴾، دون أن يقول مثلًا: (يُخرجونكم والرَّسولَ)؛ لئلّا يفوتَ تقديمُ رتبةِ الرّسول ﷺ في الكلام بذكر الضَّمير قبله، فقُدِّمَ ذكر الرّسول ﷺ؛ لئلّا يكون تابعًا لغيره[2]، بيانًا لِشَرَفِه ﷺ، ولِأنَّهُ الأصْلُ لِلْمُؤْمِنينَ بِهِ[3]؛ فلولاه ﷺ لَما آمن المؤمنون، فتقديمُ ذكره لبيانِ أنَّه المقصود بالإخراج، والمؤمنون تَبَعٌ له، وبه يزدادُ جُرْمُهم وذنبُهم؛ تشنيعًا على مَنْ تجاسَرَ على مثلِ ذلك الفِعلِ الفَظيع[4]، وكلُّ هذا تحفيزٌ للمؤمنين على سرعةِ الامتثال للنَّهي وإلهابٌ لقلوبِهم ومشاعرِهم.

توجيهُ تخصيصِ الإيمانِ بالذِّكر ﴿أَن تُؤۡمِنُواْ﴾:

عِلَّةُ عَداوةِ المشركين هي إيمانُ المؤمنين باللهِ ربِّ العالمين

تعلَّقَ المصدرُ المؤوَّلُ ﴿أَن تُؤۡمِنُواْ﴾ بالفعلِ ﴿يُخۡرِجُونَ﴾، وهو في مجرورٌ بحرفِ جرٍّ مقدَّرٍ، فيكون المصدرُ المؤوَّلُ تعليلًا للفعل

(1) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 28/ 135.
(2) ابن عثيمين، تفسير ابن عثيمين، النّساء: 2/ 310.
(3) أبو حيان، البحر المحيط: 10/ 153، وابن عادل، اللباب: 19/ 8.
(4) السّمين الحلبي، الدّر المصون: 4/ 111.

﴿يُخۡرِجُونَ﴾ وبيانًا لسبب إخراجِكم[1]، وتقديرُ الكلام: يُخرجون الرّسولَ وإيّاكم لأنْ تُؤمنوا باللّه ربِّكم؛ أي: لإيمانِكم باللّه ربِّكم[2]، وليس لهم سببٌ آخرُ سواه.

وسرُّ التّعبير بالمصدر المؤوّل دون الظّاهر؛ إذ لم يقل: (يُخرجون الرَّسولَ وإيّاكم لإيمانِكم باللّه ربِّكم) هو أنَّ التَّعبيرَ بالمصدر المؤوّل يفيدُ أنَّ إيمانَهم هو الإيمانُ المعتدّ به، وأنَّهم اتّصفوا بحقيقة الإيمان، وأنَّ اتّصافَهم بحقيقة الإيمان واستمرارَهم عليه هو الَّذي أغاظ الكفّارَ ودفَعَهم إلى إخراجِهم من دون احتمالٍ لأمرٍ زائدٍ عليه؛ من كونِهم أقرباءَ للمشركين أو غُرَباءَ عنهم، أو كونِهم أغنياءَ أو فقراء، أو قُدَماءَ في الإيمان أو حديثي عهدٍ به، إلى غير ذلك من الأحوالِ أو الأوصافِ الأخرى الَّتي قد تكونُ سببًا للإخراج؛ فبمجرَّدِ تحقُّقِ الإيمان وقَعَ من المشركين إخراجُ المؤمنين، ونظيرُ ذلك قولُهُ تعالى: ﴿وَمَا نَقَمُواْ مِنۡهُمۡ إِلَّآ أَن يُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ ۝٨﴾ [البروج: 8].

دلالةُ التَّعبيرِ بصيغةِ المضارع ﴿تُؤۡمِنُواْ﴾:

جيءَ بصيغة المضارع في قولِه: ﴿أَن تُؤۡمِنُواْ﴾؛ لإفادةِ استمرارِ إيمان المؤمنين وتجدُّدِه[3]، وفيه إيماءٌ إلى ثباتِ المؤمنين على إيمانِهم، وأنَّ إخراجَهم من بلدِهم وما حصل لهم من الأذى والضّيق لم يَصُدَّهم عن الإيمان[4]، فما دام المؤمنون على الإيمانِ فإنَّ الإخراجَ وعيدُ المتربِّصين، وعزمُ المشركين، ورغبةُ المنافقين.

ثَـبـاتُ أهـلِ الإيـمـانِ مِهْـمازُ كيدِ الفُجّار

دلالةُ تقييدِ فعلِ الإيمانِ ﴿أَن تُؤۡمِنُواْ﴾ بشبهِ الجملة ﴿بِٱللَّهِ﴾:

قُيِّدَ الفعلُ ﴿تُؤۡمِنُواْ﴾ بشبهِ الجملة ﴿بِٱللَّهِ﴾، ولم يأتِ الفعلُ مطلقًا؛ للإيماءِ إلى أنَّ إيمانَ المؤمنين هو الإيمانُ الحقُّ المعتدُّ به،

المؤمنُ الحقُّ هو الَّذي يَستحضِرُ المعيَّةَ الإلهيَّةَ في كلِّ وقت

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 235.
(2) الزّمخشري، الكشاف: 4/ 512، والنّسفي، مدارك التّنزيل: 3/ 466.
(3) البقاعي، نظم الدّرر: 19/ 487.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 28/ 135.

وهو الإيمانُ بالله تعالى وحده؛ ففيه تعريضٌ بالمشركين الَّذين يُؤمنون بالله ويُشركون معه آلهةً أخرى. ولمّا كان إيمانُ المؤمنين بالله وصفًا لازمًا لهم دلَّ على أنَّ المؤمنَ الحقَّ هو الَّذي يَستحضِرُ معيَّةَ الله تعالى في جميع أوقاتِه.

بلاغةُ التَّغليب في قوله تعالى: ﴿أَن تُؤۡمِنُواْ﴾:

النَّهيُ عن اتِّخاذِ عدوِّ الله وعدوِّ المؤمنين أولياءَ منوطٌ بالإيمان

لمّا سبَقَ الفصلُ بين الرّسول والمؤمنين في قوله تعالى: ﴿يُخۡرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمۡ﴾، وجاءَ الخطابُ في صدر الآيةِ بنداءِ المؤمنين دون الرّسول عادَ في قوله تعالى: ﴿أَن تُؤۡمِنُواْ﴾ الخطابُ للمؤمنين، وليس الخطابُ خاصًّا بهم دون رسول الله ﷺ، بدليلِ أنّه تعليلٌ للإخراج، والإخراجُ يشملُ الجميعَ، ففُهم من ذلك أنّه على سبيلِ التَّغليبِ الأسلوبيِّ، في اشتمالِ الخطابِ للرَّسولِ ﷺ ولجميع المؤمنين، تقريرًا لتعظيم شأنِ الإيمانِ ولكثرة أهلِه[1]. وفيه إشعارٌ بأنَّ الحكم - وهو النّهي عن اتّخاذ عدوّ الله وعدوّ المؤمنين أولياءَ - منوطٌ بالإيمانِ لا بخصوصِ الرّسالة؛ فهم يُخرجون الرّسولَ ويخرجونكم من دياركم وأهليكم لا من أجلِ شيءٍ سوى أنَّكم آمنتُم بالله ربِّكم، فهم يُعادونكم لإيمانِكم بالله ربِّكم.

بلاغةُ الالتِفات:

تعظيمُ شأنِ المعبودِ غرضُ كلِّ خِطابٍ مقصود

في قوله تعالى: ﴿أَن تُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ رَبِّكُمۡ﴾ التِفاتٌ منَ التّكلُّم إلى الغَيْبة؛ ففي قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمۡ﴾ جاءَ النَّظمُ بضمير المتكلِّم ﴿عَدُوِّي﴾، وفي قوله: ﴿أَن تُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ رَبِّكُمۡ﴾ جاء النَّظمُ بالاسمِ الظّاهر الدّالِّ على الغَيبةِ، ولم يقل: (أنْ تؤمنوا بي)، والسَّببُ هو الإشعارُ بما يوجِبُ الإيمانَ

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 235، والشّهاب، حاشية على تفسير البيضاوي: 8/ 183، والقونوي وابن التمجيد، حاشية على تفسير البيضاوي: 19/ 43.

من الأُلوهيَّةِ والرُّبوبيَّةِ[1]، وتعظيمُ شأنِ المعبود ﷻ وتفخيمُهُ، وللدَّلالةِ على أنَّ ما يوجِبُ الإيمانَ ويَستلزِمُ مُقتضَياتِه هو كونُهُ معبودًا بحقٍّ وربًّا لكم؛ فما ذُكِرَ يدلُّ على استجماعِهِ للصِّفاتِ الكماليَّةِ عمومًا، وعلى اتِّصافِهِ بربوبيَّتِهِ خصوصًا[2].

بلاغةُ الجمعِ بينَ عُنوانِ الألوهيَّةِ والرُّبوبيَّة:

لمّا جاءَ التّعبيرُ بعنوانِ الألوهيَّةِ بذكرِ الاسمِ الجليلِ في قوله تعالى: ﴿أَن تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ﴾ أردَفَهُ بما يَقتضي وجوبَ ذلك لإحسانِهِ ونِعَمِه، فقال: ﴿رَبِّكُمْ﴾[3]، فجمَعَ بين وصْفَيِ الإلهيَّة والرُّبوبيَّة إشعارًا بتمام إيمانِهم، وبيانًا لقبحِ صنيع المشركين في مُحارَبةِ مَن جمَعَ بينَ توحيدِ الألوهيَّةِ في العبادة، والرُّبوبيَّةِ في الخلق والتَّربية والرِّزق.

إحسانُ اللهِ تعالى وإنعامُهُ دليلٌ على ألوهيَّتِهِ ووجوبِ الإيمانِ به

دلالةُ إضافةِ لفظةِ (الرَّبِّ) إلى ضميرِ المخاطَبين ﴿رَبِّكُمْ﴾:

أُضيفَ لفظُ الرُّبوبيَّة في قوله تعالى: ﴿رَبِّكُمْ﴾ إلى ضميرِ المخاطبين؛ للإيماءِ إلى تربية الله لهم ودوامِ إحسانِه بهم، وأنَّه لن يَخذُلَهم بخُروجِهم من بلدِهم. والإضافةُ بمعنى اللّام.

ربُّكم في بلدِكم هو ربُّكم في غيرِه، ولن يَتركَكم ويَخذُلَكم إنْ أخرَجوكم

السِّرُّ البلاغيُّ في تقديمِ النَّهيِ على الشَّرطِ دونَ العكس:

جاء الشَّرطُ في قولِه تعالى: ﴿إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَٰدًا فِى سَبِيلِى وَٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِى﴾ متعلِّقًا بالنَّهي في قولِه تعالى: ﴿لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ﴾، وتقديرُ الكلام: لا تتَّخِذوا عدوّي وعدوَّكم أولياء إنْ كنتم خرجتم، ومجيءُ الشّرط في هذا المَقام بعدَ النَّهي مِن أبلغِ الأساليبِ الَّتي يُقصَدُ بها تتميمُ ما قبلَهُ من الكلام والمبالغةُ فيه، دونَ قصدِ تعليق ما قبلَهُ بمضمون فعل الشَّرط؛ وذلك من أجل تهييجِ حَميَّةِ المؤمنين وتقريرِ إيمانِهم؛ فإنَّ تقديمَ المشروط أو ما

براعةُ النَّظمِ القرآنيِّ في تقديمِ المَشروطِ على الشَّرط؛ لقصدِ الإيذانِ بتحقُّقِ مَضمونِه

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 235، والآلوسي، روح المعاني: 14/ 261.
(2) الشّهاب، حاشية على تفسير البيضاوي: 8/ 183.
(3) البقاعي، نظم الدّرر: 19/ 487.

في مَقامِه على الشّرط يقتضي حصولَ مضمونِه، وأنَّه أمرٌ محقَّقٌ لا سبيلَ للشّكِّ فيه، فلمّا قال: ﴿إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَٰدًا فِى سَبِيلِى وَٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِى﴾ كان الكلامُ بتقديرِ: لا تتَّخِذوا عدوّي وعدوَّكم أولياء إنْ كنتم خرجتم في سبيلي وابتغاءَ مرضاتي، وهو كقول القائل: لا تتولَّوا أعدائي إنْ كنتم أوليائي، ولو قيل: إنْ كنتم أوليائي فلا تتولوا أعدائي لم يكن بنفس المعنى؛ لأنَّ الشَّرط المذكور في الآية كالتّعليل للنَّهي عن الاتّخاذ المذكور، وهو يقتضي حصولَ مضمونِ النَّهي قبل ذلك؛ بمعنى: أنَّ انتهاءَ المؤمنين عن اتِّخاذِ عدوِّ الله وعدوِّهم أولياءَ أمرٌ متحقِّقٌ مضمونٌ، فالمقصودُ استقرارُ النّهي عن اتِّخاذ عدوِّ الله أولياءَ، والوثوقُ بأنَّ الَّذين نُهوا عن الاتِّخاذ مُتلبِّسون بمضمونِ الشَّرط بلا ريبٍ، فكان ذكرُ الشَّرطِ ممّا يزيدُ في الانكِفافِ عن الاتِّخاذ المذكور، ففيه مدحٌ للمؤمنين وتهييجٌ لهم. فهذا الأسلوبُ هو مِن الشَّرط الَّذي يجيءُ به المُدِلُّ بأمرِه، المُتحقِّقُ لصحَّته؛ لأنَّ الشَّرط فيه كالتَّعليلِ للنَّهي[1].

فلا يُقصَدُ من الشَّرطِ أنَّه إذا انتفى فعلُ الشّرط انتفى ما علِّق عليه كما هو الشَّأنُ في الشُّروط، بل يُقصَدُ به تأكيدُ الكلامِ الَّذي قبله بمضمونِ فعل الشَّرط، وإنْ قيل بالعكس - أي: (إنْ كنتم خرجتم جهادًا في سبيلي وابتغاء مرضاتي فلا تتَّخذوا عدوّي وعدوَّكم أولياء) - لاختلَفَ الغَرَضُ والمعنى، وكان الشَّرط لمجرَّدِ التّعليق، والجوابُ حينئذٍ معلَّق بالشّرط، فقد يقعُ وقد لا يقع، لاسيّما أنَّ الشَّرطَ قد عُلِّقَ بالأداةِ ﴿إن﴾، فلا يفيدُ تحقُّقَ مضمونِ النّهي، فكان تقديمُ النَّهي على الشَّرطِ في الآية أقْضَى لحقِّ البلاغةِ والغرضِ الَّذي سيقَ له الكلامُ. وهذا التَّوجيهُ هو الَّذي ارتَضاهُ الزَّمخشريُّ وأبو السُّعود وابنُ عاشورٍ وغيرُهم[2].

وأمّا ما جاء في بعض التَّفاسير وما ذكره بعضُ النَّحويين؛ مِن تقديرِ جواب الشَّرطِ من المذكور قبلَهُ فهو لأجلِ بيان المعنى وإيضاحِه، وتقديرُ الكلام عندهم: إنْ كنتم خرجتم جهادًا في سبيلي وابتغاء مرضاتي فلا تتَّخذوا عدوّي وعدوَّكم أولياء[3].

(1) الطّيبي، حاشية على الكشاف: 15/ 351.

(2) الزّمخشري، الكشاف: 4/ 512، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 236، والشّهاب، حاشية على تفسير البيضاوي: 8/ 184، وابن عاشور، التّحرير والتنوير: 28/ 136 - 137.

(3) الزّجاج، معاني القرآن وإعرابه: 5/ 165، وابن عطية، المحرر الوجيز: 5/ 294، وأبو حيان، البحر المحيط: 10/ 153.

بلاغةُ المجازِ المُرسَلِ المُركَّبِ في أسلوبِ الشَّرط:

الشَّرطُ أسلوبٌ ظاهرٌ، ومقصودُهُ التَّحذيرُ من عدمِ فعلِ مضمونِه

لمّا كان الشَّرطُ في قولِه تعالى: ﴿إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَٰدًا فِى سَبِيلِى وَٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِى﴾ قد جيءَ به لقصد أنَّ انكفافَ المؤمنين عن اتِّخاذِ عدوِّ اللّه أولياءَ متحقِّقٌ ومضمونٌ، بحيث لا يُتوقَّعُ من السّامع أن يحصلَ منه غيرُ مضمونِ فعل الشَّرطِ كانت صيغةُ الشَّرطِ مرادًا بها تحذيرُ المؤمنين؛ لأنَّ معنى الشَّرطِ يلزمُهُ التَّردُّدُ غالبًا؛ أي: بسببِ أصلِ وضعِه، فيكونُ قد ذَكَرَ الشَّرطَ وأرادَ التَّحذيرَ من عدمِ فعلِه على طريق المجاز المرسل المركَّب[1].

بلاغةُ ذكرِ فعلِ ﴿كُنتُمْ﴾:

دَيْدَنُ المؤمنين جهادُ الكافرين

آثَرَ النَّظمُ الكريم ذكرَ الفعل ﴿كُنتُمْ﴾ دون حذفه، فلم يقل: (إنْ خرجتم جهادًا في سبيلي)؛ لِما يدلُّ عليه فعل الكون من تحقُّقِ حصول الشَّرطِ وتأكيدِه[2]؛ بمعنى: أنَّ خروجَ المؤمنين لأجلِ الجهاد في سبيل اللّه هو كونٌ راسخٌ[3]، وهو دَيدَنُهم في الأفعال والأوقات كلِّها.

نوعُ تعلُّقِ جملةِ الشَّرطِ بجملةِ النَّهي:

تَعمَلُ جملةُ النَّهي في جملةِ الحالِ؛ لقوَّةِ التَّعلُّق بينَهما

لمّا كانت جملةُ الشَّرطِ ﴿إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ﴾ متعلِّقةً بجملةِ ﴿لَا تَتَّخِذُوا۟ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ﴾ كانت على معنى تعلُّقِ الحالِ بعاملِها، بمعنى: لا تتَّخذوا عدوّي وعدوّكم أولياءَ والحالُ حالُ كونكم خرجتم جهادًا في سبيلي وابتغاءَ مرضاتي. وهذا التَّوجيهُ ذكره الزّمخشريُّ، بناءً على أنَّ شَرْطَ (إنْ) و(لو) الوصليّتين يعتبر حالًا، ولا يُعكِّرُ عليه أنَّ شرطَهما يَقترنُ بواو الحالِ والَّذي في الآية لم يَقترنْ بواو الحال؛ لأنَّ ابنَ جنّي والزَّمخشريَّ سوَّغا خُلوَّ الحالِ في مثلِه عن الواو، والبلاغةُ والاستعمالُ يَشهدانِ لهما[4].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 28/ 136.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 28/ 136.
(3) البقاعي، نظم الدّرر: 19/ 487.
(4) الشّهاب، حاشية على تفسير البيضاوي: 8/ 184، والآلوسي، روح المعاني: 14/ 261، وابن عاشور، التّحرير والتنوير: 28/ 137.

تخصيصُ عموم النِّداء بضميرِ الخِطاب:

قرينةُ سببِ النُّزولِ تُخَصِّصُ الخِطاب

قولُهُ ﷻ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ﴾ عامٌّ يَشمَلُ المؤمنين جميعًا، لكنْ لمّا كان المرادُ بالخروج في قولِه تعالى: ﴿إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ﴾ الخروجَ مِن مكَّةَ مُهاجَرةً إلى المدينةِ كان مرجعُ الخطاب للمهاجرين خاصَّةً؛ لأنَّ القصَّة صَدَرَتْ عن حاطبِ بن أبي بلتعةَ وهو منهم، وفي ذلك تخصيصٌ للعموم المفهومِ من قولِه: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾.

بلاغةُ تعليلِ الخروجِ بالجهادِ وابتغاءِ المَرْضاة:

نيَّةُ الخروجِ للجهادِ لا يُعكِّرُ عليها إخراجُ الكَفَرةِ المؤمنين مِن بلادِهم

جاءَ لفظُ ﴿جِهَـٰدًا﴾ بصيغةِ المصدرِ مفعولًا لأجلِه للفعل ﴿خَرَجْتُمْ﴾؛ ليُفيدَ تقييدَ خروجِهم لغرضِ الجهاد في سبيل الله تعالى، ومثلُهُ في مجيئِه مفعولًا لأجلِه قولُهُ: ﴿وَٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِى﴾؛ بمعنى: أنَّ الغايةَ الَّتي كانت في قلوب المؤمنين عندَ خروجِهم هي الجهادُ في سبيل الله وابتغاءُ مرضاتِه، وإسنادُ الخروجِ إليهم مُعلَّلًا بالجهادِ والابتغاءِ يدلُّ على أنَّ المرادَ من إخراجِ الكَفَرةِ كونُهم سببًا لخُروجِهم، بأذيَّتِهم لهم والتَّضييق عليهم، فلا يُنافي تلك السَّببيَّةَ كونُ إرادةِ الجهادِ والابتغاءِ علَّةً للخروج[1].

بلاغةُ عطفِ (ابتغاءِ مَرْضاةِ الله) على (الجهاد):

الجمعُ بينَ حُقوقِ العبادِ وحقِّ اللهِ تعالى

في قولِه تعالى: ﴿جِهَـٰدًا فِى سَبِيلِى وَٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِى﴾ جمعٌ بينَ غرضين للمؤمنين في خروجِهم - وهو جمعٌ محمودٌ - **أحدُهما**: الجهادُ في سبيلِه بمعنى تسهيلِ الطَّريقِ الَّتي شرَعَها الله لعباده لكي يَسلُكوها. **والثّاني**: ابتغاءُ مرضاتِه سبحانه، فجَمَعَ في هذين الغرضَين ما يتعلَّقُ بحقوقِ العباد في دعوتِهم للإسلام، وما يتعلَّقُ بحقِّ الله تعالى، وهو إخلاصُ النِّيَّةِ له. وعطفُ (ابتغاءِ مرضاةِ الله تعالى) على (الجهادِ في سبيل الله) مِن بابِ التَّتميمِ والتَّكميل؛ فإنَّ

(1) الهرري، حدائق الرّوح والريحان: 29/ 194.

مَن يجاهدُ في سبيل الله تعالى طالبٌ لمرضاةِ الله سبحانه. ومَنْ كان حالُهُ الجهادَ في سبيل الله وابتغاءَ مرضاتِهِ فإنَّه لا يتَّخِذُ عدوَّ الله وعدوَّ المؤمنين أولياء؛ ففيه تعجيبٌ ممَّن يفعلُ هذا وتوبيخٌ له.

نكتةُ إيثارِ مفردةِ ﴿وَٱبۡتِغَآءَ﴾:

تصويرُ اجتهادِ المؤمنين في طلبِ مَرْضاةِ الله

أوثِرَتْ مفردةُ الابتغاءِ في قوله تعالى: ﴿وَٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِيۚ﴾ دون أن يقال مثلًا: طلبَ مرضاتي؛ لأنَّ الابتغاءَ هو الاجتهادُ في الطّلب[1]، مع السَّعيِ في حصولِ المطلوب والرَّغبةِ فيه، كما تدلُّ المفردةُ على التَّزايُدِ في الطَّلبِ حتَّى اكتمالِهِ؛ ليُفيدَ استمرارَ ابتغائِهم مرضاةَ الله. فسببُ إيثارِ لفظِ الابتغاءِ هو الإشعارُ باجتهاد المؤمنين في الحصول على مرضاة الله، وشدَّةِ رغبتِهم فيه، مع طلب الزّيادة في الاجتهاد. ولو قيل: (وطلبَ مرضاتي) لفاتَتْ هذه المعاني.

فائدةُ التَّعبيرِ بالمصدرِ الميميّ:

زيادةُ المبْنى تدلُّ على زيادةِ المعنى

جاء التَّعبيرُ بصيغةِ المصدر الميميِّ ﴿مَرۡضَاتِيۚ﴾ دونَ المصدر الصَّريح (رِضاي)؛ للمبالغةِ في الدَّلالة على الرِّضوانِ؛ لأنَّ المصدرَ الميميَّ أبلغُ من جهةِ الزّيادة في المبنى.

نكتةُ الإضافةِ إلى ضميرِ المتكلِّم في ﴿سَبِيلِي﴾ و﴿مَرۡضَاتِيۚ﴾:

سبيلُ اللهِ ليس كسائرِ السُّبُلِ، ومرضاتُهُ ليست كأيِّ مَرْضاةٍ

أُضيفَ لفظُ السَّبيلِ والمرضاةِ إلى ضميرِ ياء المتكلِّم العائدِ إلى الله تعالى؛ للإيذانِ بتخصيص السّبيل والمرضاة بالله تعالى؛ بمعنى: أنَّ الجهادَ المطلوب هو الَّذي يكون في سبيل الله تعالى لا في سبيل غيرِه، ومثلُهُ الابتغاءُ، كما أنَّ في الإضافة تشريفًا للمضاف؛ أي: تشريفَ سبيلِه ومرضاتِه ﷻ؛ فسبيلُهُ ليس كسائرِ السُّبل، ومرضاتُهُ ليست كأيِّ مرضاةٍ.

علَّةُ فَصْلِ جملةِ ﴿تُسِرُّونَ﴾:

يُحتمَلُ أن تكونَ جملةُ ﴿تُسِرُّونَ إِلَيۡهِم بِٱلۡمَوَدَّةِ﴾ من بابِ شبهِ كمالِ

(1) الرّاغب، المفردات: (بغي).

تـنـوُّعُ الإعـراب صـادرٌ عـن كـثرة المعاني وسَعَتِها

الاتِّصالِ استئنافًا بيانيًّا[1]؛ لغرضِ العتابِ والتَّوبيخِ، كأنَّهم سألوا: ماذا صدَرَ عنّا حتّى عوتِبْنا؟ فقيل: ﴿تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ﴾[2]؛ أي: أيُّ طائلٍ لكم في إسرارِكم المودَّةَ إليهم؟! ليفيدَ بلازِمِهِ أنْ لا نفعَ لكم فيه[3].

ويُحتمَلُ أن تكون الجملةُ بدلَ اشتمالٍ من ﴿تُلْقُونَ إِلَيْهِم﴾ من بابِ كمالِ الاتِّصال؛ لأنَّ الإسرارَ إليهم بالمودَّة ممّا اشتمَلَ عليه الإلقاءُ إليهم بالمودَّة، فيكون المرادُ بيانَ نوعِ الإلقاء الواقع[4].

ويُحتمَلُ كذلك أن تكونَ بدلَ بعضٍ من كلٍّ[5]؛ لأنَّ الإلقاءَ إليهم بالمودَّة يكون سرًّا وجهرًا، فأُبدِلَ منه بعضُهُ - وهو الإسرار - على سبيلِ بدل بعضٍ من كلٍّ، والغرضُ تقريرُ الإسرارِ إليهم بالمودَّة بعدَ إثباتِ إلقائِها بزيادةِ بيانٍ وإيضاحٍ. وهذه المعاني كلُّها صحيحةٌ وسليمة.

فائدةُ الخبرِ وغرضُهُ:

حَـسَـبُ الأمـرِ شناعةً ألّا يكونَ له وجهٌ يَظهَرُ به في النّاسِ

غرضُ الخبر في قولِه تعالى: ﴿تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ﴾ التّوبيخُ على الفعل[6]، وإنكارُهُ[7]، وتقبيحُهُ، والتَّعجيبُ منه؛ فالتَّوبيخُ مستفادٌ من إيقاعِ الخبر بعد النَّهي في قولِه تعالى: ﴿لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ﴾. وتقبيحُهُ مستفادٌ من أنَّ إسرارَكم هذه المودَّةَ دليلٌ على أنَّها أمرٌ تستقبِحونه أنتم وتُنكِرونه، ويَستقبِحُهُ المؤمنون عليكم، فلو كان غيرَ مُستقبَحٍ وغيرَ مُنكَرٍ لأعلنتُموه، فإخفاءُ هذه المودَّة الَّتي بين بعض المؤمنين وبين المشركين شاهدٌ على أنَّها

(1) البيضاوي، أنوار التّنزيل: 5/ 204، وابن عاشور، التّحرير والتنوير: 28/ 137.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السليم: 8/ 236.
(3) الزّمخشري، الكشاف: 4/ 512، والبيضاوي، أنوار التّنزيل: 5/ 204، والقونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 19/ 45.
(4) أبو حيان، البحر المحيط: 10/ 153، والشهاب، حاشية على تفسير البيضاوي: 8/ 184، وابن عادل، اللباب في علوم الكتاب: 19/ 10.
(5) الشّهاب، حاشية على تفسير البيضاوي: 8/ 184.
(6) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 19/ 45.
(7) الشّهاب، حاشية على تفسير البيضاوي: 8/ 184.

ممّا يُعاب على المؤمن، وممّا ينبغي سترُهُ وإخفاؤه، وحَسْبُ الأمرِ شناعةً ألّا يكون له وجهٌ يَظهَرُ به في النّاس، فإنْ ظهَرَ كان فضيحةً لصاحبه[1]. والتّعجيبُ مستفادٌ من تعقيبِه بجملة ﴿وَأَنَا۠ أَعۡلَمُ بِمَآ أَخۡفَيۡتُمۡ وَمَآ أَعۡلَنتُمۡۚ﴾؛ أي: كيف يخفى عليكم أنَّ إسرارَكم إليهم يخفى علينا؟! ولا نُطلِعُ عليه رسولَنا[2]؟!.

وقد دلَّ الخبرُ ﴿تُسِرُّونَ إِلَيۡهِم بِٱلۡمَوَدَّةِ﴾ بطريقِ لازم الفائدةِ على صدق رسالةِ سيِّدنا محمَّدٍ ﷺ؛ لأنَّ حاطبَ بنَ أبي بلتعةَ لم يُطلِعْ على سرِّه أحدًا، وقد أطلَعَ اللّه تعالى نبيَّه ﷺ، حيث أخبَرَهم بالكتاب، فثبَتَ أنَّه عَلِمَهُ بالوحي[3].

فائدةُ تقديمِ ﴿إِلَيۡهِم﴾ على ﴿بِٱلۡمَوَدَّةِ﴾ في الموضعين:

تخصيصُ المشركين بالمودَّةِ والإسرارِ مِن أشنَعِ الأمورِ وأقبحِها

قُدِّمَ الجارُّ والمجرور ﴿إِلَيۡهِم﴾ على ﴿بِٱلۡمَوَدَّةِ﴾ في قولِه تعالى: ﴿تُلۡقُونَ إِلَيۡهِم بِٱلۡمَوَدَّةِ﴾ وفي قولِه تعالى: ﴿تُسِرُّونَ إِلَيۡهِم بِٱلۡمَوَدَّةِ﴾؛ لإفادةِ التَّخصيص، وفي ذلك تقبيحٌ وتوبيخٌ لمن يفعلُ ذلك، لأنَّ فعلَهُ مختصٌّ بكونِه إلى عدوِّ اللّه؛ فإنَّ إلقاءَ المودَّةِ والإسرارَ بها إلى أولياءِ اللّه أمرٌ ممدوحٌ؛ لأنَّه ينفعُ المؤمنين، أمّا أنْ يكون ذلك مختصّا بالمشركين المُعادينَ للّهِ ولرسولِه فذلك شنيعٌ وقبيح.

يضافُ إلى ذلك: أنَّ المشركين كانوا على بُعْدٍ من المؤمنين في الشُّقَّةِ المكانيَّة، وهم بعيدون عنهم في الشُّقَّةِ النَّفسيَّة، فناسَبَ تقديمُ القيدِ ﴿إِلَيۡهِم﴾؛ للإيحاءِ بقُرْبِهم ممَّن يُلقي إليهم بالموادَّة والإسرار.

نكتةُ التَّعبيرِ بصيغةِ المضارع:

استِحضارُ الإسرارِ وتقبيحُهُ

أوثِرَ التَّعبيرُ بصيغةِ المضارع في قوله: ﴿تُسِرُّونَ﴾؛ لاستحضارِ حالِ الإسرار، وفي ذلك تقبيحٌ لحالةِ الإسرارِ بالأخبار إلى عدوِّ اللّه بدافع المودَّة؛ ليدلَّ على فظاعةِ فعلِ الإسرارِ بمودَّة الكَفَرة.

(1) عبد الكريم الخطيب، التّفسير القرآني للقرآن: 14/ 893.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 28/ 138.
(3) الماتريدي، تأويلات أهل السّنة: 9/ 608.

نوعُ الباءِ ودلالتُها:

هذه الباءُ كتلك الباء

الكلامُ على الباءِ هنا جارٍ مَجرى الكلامِ عليها في قوله تعالى: ﴿تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ﴾، فتَحتمِلُ الباءُ في قولِه تعالى: ﴿تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ﴾ أن تكون للسّببيَّة[1]؛ أي: تسرّون إليهم أخبارَ الرَّسول ﷺ بسبب المودَّة، وتَحتمل أن تكون صلةً؛ لتوكيدِ دلالةِ الفعل ﴿تُسِرُّونَ﴾؛ أي: تسرّون إليهم المودَّةَ[2].

غرضُ حذفِ المفعول:

إسـرارُ المـودَّةِ للـكافرين من أعمالِ الغافلين

حُذِفَ مفعولُ ﴿تُسِرُّونَ﴾؛ إمّا لأنّه عومِلَ معاملةَ اللّازم؛ لبيان أنَّ أيَّ إسرارٍ لعدوِّ اللّه منكرٌ وقبيح ولا نفعَ فيه؛ فالإنكارُ قائمٌ بمجرَّد فعلِ الإسرار لعدوِّ اللّه، فكيف إذا تعلَّقَ الإسرارُ بحديثٍ أو خبرٍ ينكشف به أمرُ المؤمنين؟! وإمّا للإيجاز، على تقدير الكلام من السّياق، وتقدير الكلام: تسرّون إليهم الأخبارَ بالمودَّة؛ أي: بسبب المودَّة.

نوعُ الواوِ وفائدتُها في قوله: ﴿وَأَنَا۠ أَعْلَمُ﴾:

الـواوُ تَحتَمِلُ الحـالَ والاعـتراضَ، والمآلُ مُتقارِب

الواوُ في قولِه تعالى: ﴿وَأَنَا۠ أَعْلَمُ﴾ حاليَّةٌ[3]، فتكون جملةُ (أنا أعلَمُ بِما أخفَيتُم وما أعلَنتُم) في محلِّ نصبٍ على الحال من الضّمير في ﴿تُسِرُّونَ﴾، وهي حالٌ لازمةٌ. وفائدةُ مجيء جملة الحال هي التَّعجيبُ من حالِ الإسرار إليهم بالمودَّة مع أنَّه تعالى أعلمُ بما أخفَوا وما أعلنوا، والمعنى: أيُّ طائلٍ لكم في إسرارِكم والحالُ أنّي أعلمُ منكم بما أخفيتم وما أعلنتم؟! وقد علمتُم أنَّ الإخفاء والإعلان سيّانِ في علمي لا تفاوتَ بينهما، وأنا مُطْلِعٌ رسولي على ما تسرّون[4]!

وأجاز ابن عاشور أن تكون جملةُ (أنا أعلَمُ بِما أخفَيتُم وما

(1) البيضاوي، أنوار التّنزيل: 5/ 204، والمنتجب الهمذاني، الكتاب الفريد: 6/ 134، والسمين الحلبي، الدّر المصون: 10/ 298.

(2) المنتجب الهمذاني، الكتاب الفريد: 6/ 134، والسّمين الحلبي، الدّر المصون: 10/ 298.

(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 236، واسماعيل حقّي، روح البيان: 9/ 474.

(4) الزّمخشري، الكشاف: 4/ 512.

أعلَنتُم) اعتراضيَّةً؛ لتفيدَ الجملةُ التَّعجيبَ[1] من الإسرار بالمودّة إلى الكافرين عمومًا، ويدخلُ فيه المعرَّضُ به وهو حاطب بن أبي بلتعة دخولًا أوّليًّا، فمآلُ الوجهين في توجيهِ الجملة واحدٌ، واللّه تعالى أعلم.

علَّةُ استعمالِ الضَّميرِ دونَ لفظِ الجلالة:

الاتِّساقُ مع السَّوابقِ من عِلَلِ الاختيار

أوثِرَ التَّعبيرُ بضمير المتكلّم (أنا) على أن يقالَ: (واللّهُ أعلمُ بما أخفيتم وما أعلنتم)؛ للمناسبة؛ فالسّياقُ من أوَّلِهِ استعمَلَ ضميرَ المتكلِّم في قوله تعالى: ﴿لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّي﴾، وقولِه: ﴿سَبِيلِي﴾، وقولِه: ﴿مَرۡضَاتِيۚ﴾؛ فعُبِّرَ هنا بضمير المتكلِّم ليكونَ موافقًا للسّياق. كما أنَّ التَّعبير بضمير المتكلِّم الدّالِّ على الخصوصيَّة أوفَقُ للإخبارِ بكونِهِ تعالى هو الأعلمَ بما أخفيتُم وما أعلنتم.

فائدةُ استعمالِ اسمِ التَّفضيل ﴿أَعۡلَمُ﴾:

الدَّلالةُ على كمالِ العلمِ الإلهيِّ، والمبالغةُ في بيانِ ذلك

لا يدلُّ اسمُ التّفضيل في قولِه تعالى: ﴿وَأَنَا۠ أَعۡلَمُ﴾ على حقيقةِ المفاضلة، وأنَّ غيرَ اللّه تعالى له عِلْمٌ، وأنَّ علمَه تعالى أكثرُ من علمِ غيرِه وأفضلُ منه؛ لأنَّ أفعلَ التَّفضيل في أوصافِ اللّه تعالى ليستْ على بابِها، وإنّما يُؤتى بأفعلِ التَّفضيلِ في أوصاف اللّه تعالى كما في ﴿أَعۡلَمُ﴾ للدَّلالةِ على تمام علمِه وكمالِه، بحيث لا علمَ فوقَ علمِه سبحانه، وليفيدَ أنَّ العبادَ مهما عَلِموا أشياءَ فاللّهُ على علمٍ أوسعَ من علمِهم، وما عَلِموا شيئًا إلّا من بحارِ علمِه سبحانه.

على أنَّ بعضَ المُفسِّرين جوَّزَ أنْ يكونَ قوله تعالى: ﴿أَعۡلَمُ﴾ فعلًا مضارعًا، والباءُ في قولِه: ﴿بِمَآ﴾ إمّا صلةٌ لتوكيدِ تعلُّقِ معنى العلم بمفعولِه، وإمّا للتَّعديةِ، على حدِّ قولنا: عَلِمْتُ بكذا.

نوعُ الباءِ ودلالتُها:

الباءُ في قولِه تعالى: ﴿بِمَآ أَخۡفَيۡتُمۡ﴾ تدلُّ على المصاحبة؛ لتفيدَ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 28/ 138.

تأكيدُ تعلُّقِ علمِ اللهِ بكلِّ صغيرةٍ وكبيرة

مصاحبةَ علمِ اللّهِ تعالى التّامِ لِما أخفَوهُ وما أعلنوه، فلا يَنفَكُّ علمُه تعالى عن كلِّ ما يُخفَى وما يُعلَن.

ويُحتمَلُ أن تكون الباءُ للتَّعدية؛ لأنَّ العلمَ يتعدّى بالباء، كقولنا: علمتُ به، وأنا عالمٌ بكذا. كما يُحتملُ أن تكونَ صلةً إنْ جُعل قولُه تعالى: ﴿أَعْلَمُ﴾ فعلًا مضارعًا لا اسمَ تفضيلٍ، كما تقدَّم في الفقرة السّابقة.

دلالةُ الاسمِ الموصول (ما):

عمومُ عِلْمِ اللهِ تعالى لكلِّ شيء

أوثِرَ استعمالُ الاسم الموصولِ (ما) في قولِهِ تعالى: ﴿بِمَآ﴾ على (الَّذي)؛ لإفادة معنى العموم؛ ليشملَ كلَّ ما يَدخُلُ في الخفاءِ وفي العلن، ولو أتى بـ(الَّذي) لأشعَرَ ذلك بتعلُّقِ علمِهِ سبحانه بشيءٍ خاصٍّ بعينه. والعائدُ على الاسمِ الموصول محذوفٌ، والتَّقديرُ: وأنا أعلم بما أسررتُموهُ وما أعلنتُموه.

على أنَّ (ما) تحتملُ المصدريَّةَ، والتَّقديرُ حينئذٍ: وأنا أعلمُ بإخفائِكم وبإعلانِكم، وحينئذٍ يتعلَّقُ علمُ الله تعالى بالحَدَث؛ أي: حَدَثِ الإخفاءِ وحَدَثِ الإعلانِ، وإذا كان كذلك فعلمُهُ سبحانه بالمُخفَى والمُعلَن أولى. ودلالةُ العمومِ نجدُها في كلا الاحتمالَين.

بلاغةُ استعمالِ مُفردةِ الإخفاءِ دونَ الإسرار:

ذكرُ الإخفاءِ تعليلٌ للعلمِ بالإسرارِ؛ فاللهُ تعالى يعلمُ السِّرَّ وأخفى

آثرَ النّظمُ الكريم استعمالَ مفردة الإخفاء في قولِهِ تعالى: ﴿بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْ﴾ على مفردة الإسرار، فلم يَقُلْ: (بما أسررتم وما أعلنتم) مع أنَّه في الظّاهر مناسبٌ وأليقُ بقولِهِ تعالى قبلَهُ: ﴿تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ﴾، والسَّببُ هو قصدُ المبالغة في عمومِ علم اللّه تعالى، والمقامُ يقتضيه؛ فإنَّ الإخفاءَ أبلغُ من الإسرار؛ ليدلَّ على أنَّكم وإنْ أسررتُم إليهم بالمودّة فإنّه تعالى أعلم بما هو أدقُّ من إسرارِكم وهو الإخفاء. وقد دَلَّ على هذا المعنى قوله تعالى: ﴿فَإِنَّهُۥ

﴿يَعۡلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخۡفَى ٧﴾ [طه: 7]؛ أي: أخفَى مِنَ السِّرِّ[1]، فالإخفاءُ هو ما يُخفيه الإنسانُ في نفسه عن الآخرين قصدًا، والإسرارُ يكون بينَ اثنين أو أكثرَ على سبيل الحفاظ على المُسَرِّ به؛ ولذلك أتى بذكرِ الإخفاء بعدَ ذكر الإسرار على سبيل التّعليل؛ أي: إذا كنتم تُسرّون إلى الأعداء بالمودّة فاللّه يعلمُ الأخفى من ذلك، فما بالُكم بالسّرِّ؟.

غرضُ حذفِ المفعول:

حُذِف مفعولُ الفعلين ﴿أَخۡفَيۡتُمۡ﴾ و﴿أَعۡلَنتُمۡۚ﴾، فلم يقل: (وأنا أعلم بما أخفيتموه وما أعلنتموه)؛ لإفادةِ عموم الاسم الموصول وعموم التَّعلُّق؛ بمعنى عمومِ تعلُّقِ علمِه تعالى بكلِّ ما يُخفى وما يُعلَن؛ مِمّا يَرِدُ في هذا السّياق من إسرارِ المودَّة ونحوها، وغيرِهِ ممّا يكون في سائرِ مجالات الحياة، ويدخلُ فيه ما أخفَوهُ من الإسرارِ إلى الكَفَرةِ بالمودَّة دخولًا أوَّليًّا.

لا يَخفى على اللّه شيءٌ من مَكنوناتِ النُّفوسِ ومُظهَراتِها

غرضُ تقديمِ ﴿أَخۡفَيۡتُمۡ﴾ على ﴿أَعۡلَنتُمۡۚ﴾:

قُدِّمَ ذكرُ الإخفاءِ على الإعلان في قوله تعالى: ﴿بِمَآ أَخۡفَيۡتُمۡ وَمَآ أَعۡلَنتُمۡۚ﴾؛ لأنَّه المناسبُ للتَّعبيرِ باسم التَّفضيل ﴿أَعۡلَمُ﴾، وهو المناسبُ كذلك للقصَّة الَّتي أسرَّ فيها الرّجل الأخبار[2]، كما أنَّ في تقديم الإخفاء تحذيرًا من بداياتِ وقوع الفعل من أوَّل الأمر، وهو التّحدُّثُ في النّفس الَّذي يكون في السّرِّ أو يكون في الخفاء. وفيه إشعارٌ بالمبالغةِ في بيانِ شمولِ علمِه المحيطِ بجميعِ المعلومات، كأنَّ عِلْمَهُ بما يُسرّونه أقدمُ منه بما يُعلنونه مع كونِهما في الحقيقةِ على السَّويَّة، كما أنَّ مرتبةَ السِّرِّ متقدِّمةٌ على مرتبة العلنِ؛ إذ ما من شيء يُعلَنُ إلّا وهو – أو مَباديهِ قبل ذلك – يكون في السِّرِّ غالبًا[3].

بدايةُ العَلَنِ وأصلُهُ سرٌّ يَخفى في النَّفس

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 517.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 28/ 138.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 1/ 118.

بديعُ الطِّباقِ وبلاغتُهُ:

علمُ الله تعالى بالخفيّاتِ والجهريّاتِ واحد

في قولِه تعالى: ﴿بِمَآ أَخۡفَيۡتُمۡ وَمَآ أَعۡلَنتُمۡۚ﴾ طباقُ التَّضادِّ بين الفعلين ﴿أَخۡفَيۡتُمۡ﴾ و﴿أَعۡلَنتُمۡۚ﴾، وهو طباقُ إيجابٍ، ومناسبةُ الطِّباق التَّصريحُ بتعميمِ علمِه تعالى بكلِّ شيءٍ، والتَّنبيهُ على تساوي ما في الخفاء وما في الجهر في علمِه ﷻ؛ فعلمُه تعالى بالخفيّات كعلمه بالجهريّات؛ إذ الخفاءُ واردٌ في حقِّ البشرِ؛ فلا يخفى على الله شيءٌ[1]؛ إذ الإخفاء والإعلان هو باعتبار حال الإنسان لا باعتبار علم الله تعالى، وذِكرُ علمِ الله بهما لدفعِ جهل الجاهلين وغفلة الغافلين.

غرضُ عطفِ جملةِ الشَّرطِ على جملةِ النَّهي:

اتِّخاذُ عدوِّ اللهِ أولياءَ سببٌ للضَّلالِ عن الهُدى

عَطَفتِ الواوُ في قوله تعالى: ﴿وَمَن يَفۡعَلۡهُ مِنكُمۡ﴾ جملةَ الشَّرطِ على جملةِ النَّهي ﴿لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمۡ أَوۡلِيَآءَ﴾، فجملةُ الشَّرط في حيِّز خطاب الَّذين آمنوا؛ فكأنَّه قيل: يا أيُّها الَّذين آمنوا مَن يفعله منكم فقد ضَلَّ سواءَ السّبيل. وأفادَ عطفُ جملة الشّرط على النّهي التَّوعُّدَ على عدمِ الانتهاء، بأنَّ مَن لم ينتهِ عمّا نُهيَ عنه فقد ضلَّ عن سواء السّبيل[2]. ويُلمَحُ في العطف معنى السّببيَّة؛ ليفيدَ أنَّ اتِّخاذَ عدوِّ اللهِ أولياءَ سببٌ للضَّلالِ عن الهُدى.

دلالةُ اسمِ الشَّرطِ (مَن):

كلُّ مَن يَصدُرُ عنه ولاءٌ لغيرِ الإسلام فقد عرَّضَ نفسَهُ للضَّلال

جاء التَّعبيرُ باسم الشّرط (مَن) الَّذي للعاقل، الدّالِّ على العموم، ولمّا كان الخطابُ مُصدَّرًا باسم الَّذين آمنوا أفاد اسمُ الشَّرط العمومَ لكلِّ مؤمنٍ باللهِ ورسولِه. وقرَّرَ هذا المعنى قولُهُ: ﴿مِنكُمۡ﴾؛ أي: منكم أيُّها المؤمنون، والعمومُ في (مَن) على سبيلِ البدل من كلِّ المؤمنين فردًا فردًا، فأيُّ فردٍ يفعلُ هذا الفعلَ فقد ضلَّ سواءَ السّبيل.

(1) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 19/ 45.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 28/ 139.

تعيينُ مرجعِ الضَّمير:

يعودُ الضَّميرُ في قوله تعالى: ﴿يَفْعَلْهُ﴾ على الاتِّخاذِ المفهومِ من الفعل ﴿تَتَّخِذُواْ﴾[1]، وتقديرُ الكلام: مَن يفعلِ اتِّخاذَ عدوّي وعدوِّكم أولياءَ بعدَ النَّهيِ والتَّحذيرِ فقد ضلَّ سواءَ السّبيل.

ارتكابُ المَنْهيِّ ضلالٌ بَيِّن

ويجوزُ أن يكونَ الضَّميرُ في ﴿يَفْعَلْهُ﴾ عائدًا على الإسرارِ المفهومِ مِن الفعل ﴿تُسِرُّونَ﴾، والتَّقديرُ: ومَن يفعلْ مِنكمُ الإسرارَ بالمودَّةِ إلى العدوِّ فقد ضلَّ سواءَ السَّبيل[2].

براعةُ تقييدِ الفعلِ بقولِهِ: ﴿مِنكُمْ﴾:

قُيِّدَ الفعلُ ﴿يَفْعَلْهُ﴾ بالجارِّ والمجرور ﴿مِنكُمْ﴾، فلم يقل: (ومن يفعله فقد ضلّ سواء السّبيل)، و(مِن) هذه بيانيَّةٌ متعلِّقةٌ مع مجرورِها بمحذوفٍ حالٍ من فاعلِ ﴿يَفْعَلْهُ﴾ المستترِ، والتَّقدير: ومَن يفعلْهُ حالةَ كونِهِ مِنكم، والتَّقييدُ بـ(مِن) هنا لبيانِ الحكم الظّاهر على مَن يفعلُ ذلك من المؤمنين، فجاءت الآيةُ لبيان الظّاهر، وهو أنَّ المؤمن يُحاسَبُ على أعمالِه، ولتَدفَعَ التَّشكيكَ في النّاس فلا يُتَّهمَ مَن يفعلُ ذلك بالنّفاق، فجُعِلَ مَن يَصدُرُ عنه ذلك ضالًّا بعدَ هدًى، لا أنَّه منافقٌ أصالةً، وذلك لبيانِ أنَّ الخطأ قد يَصدُرُ عن المؤمنين مِن دونِ تَبْييتِ النّفاق، وهذا يؤكِّدُ على أنَّ الأعمالَ مرتبطةٌ بظَواهرِها، وليس لأحدٍ أن يَتَّهمَ آخَرَ بالنّفاق ولو صدَرَ عنه مثلُ هذا الصّنيع، فالحكمُ بالضّلال عن السّبيل إنّما يكون للمُهتدي الَّذي يفعلُ هذا الفعلَ، ومن هو ضالٌّ عن السّبيل لا يدخلُ في الحكم أصلًا؛ لأنَّ ضلالَهُ قد تقرَّرَ في الأصلِ، كما أنَّ التَّعجيبَ ممَّن يفعلُ هذا الفعلَ والحكمَ عليه بالضَّلال عن الهدى إنّما يكون للمؤمنين الَّذين يتَّخِذون العدوَّ أولياء.

ليس لأحدٍ أنْ يحكمَ على عقيدةِ الآخرينَ بلَواحِقِ الأفعال

(1) البيضاوي، أنوار التّنزيل: 5/ 204.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 14/ 262.

بلاغةُ الاستعارةِ وفوائدُها:

طـريـقُ الـحـقِّ واضحٌ مستقيمٌ، ومَن انحرَفَ عنه وقَـعَ في الـهلاكِ المُبِين

قولُهُ تعالى: ﴿سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ على طريق الاستعارةِ التَّصريحيَّة، بتشبيه المعنويِّ - وهو الحقُّ الواضحُ - بالحسّيِّ وهو الطَّريقُ المستقيم، حيث شبَّه الحقَّ والهدى وما يتبعه من الأعمالِ الصّالحةِ - ومنها تولّي اللّه ورسولِه والمؤمنين - بالطَّريق المستقيم الواضح. ووجهُ الشَّبهِ بلوغُ مَنْ سلك الحقَّ والهدى إلى بُغْيتِه، ووقوعُ مَن انحرَفَ عنها في الهلاك. ومِن فوائدِ الاستعارة تقريبُ المعنى وتوضيحُهُ بتجسيدِهِ بالطَّريق المستقيم، ومنها التَّأثيرُ في المتلقّي، حيث تجعلُهُ يتخيَّلُ الحقَّ وكأنَّه شيءٌ ماديٌّ ملموس، وهو ما يجعلُهُ أكثرَ إقبالًا على اتِّباعِ هذا الطَّريق.

نوعُ الفاءِ ودلالتُها:

موالاةُ أعداءِ اللهِ سببٌ للضَّلالِ عـن سـواءِ السَّبيل

أفادَتِ الفاء الواقعة في جواب الشّرط في قولِه تعالى: ﴿فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ تعقيبَ الجواب للشّرط، وكونَ الشّرط سببًا في حصول الجواب؛ بمعنى: أنَّ اتِّخاذ العدوِّ أولياءَ سببٌ للضّلال عن سواء السّبيل، وأنَّ ضلالَه يقعُ عقبَ اتِّخاذ العدوِّ أولياءَ من غير مُهلةٍ؛ تفظيعًا للأمر وتحذيرًا منه.

سرُّ مجيءِ الجزاءِ بصيغةِ الفعلِ الماضي المُقترنِ بـ(قد):

عـنـدَ وُقـوعِ الأفعالِ تتحقَّقُ نتائجُها وثمراتُها

جاءَ الجزاءُ بصيغةِ الفعل الماضي مُقترنًا بـ(قَدْ) في قولِه تعالى: ﴿فَقَدْ ضَلَّ﴾؛ للدَّلالةِ على شدَّةِ تَرَتُّبِ الجزاء على الشَّرطِ، وتحقُّقِ وقوعِهِ معه؛ فبمجرَّدِ حصولِ مضمون الشّرط يحصلُ الجزاءُ معه من غير مُهلةٍ؛ فالجزاءُ حاصلٌ مع شرطه، ونظيرُهُ قوله تعالى: ﴿وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِى فَقَدْ هَوَىٰ ﴿٨١﴾﴾ [طه: 81].

بلاغةُ إضافةِ الصِّفةِ إلى الموصوفِ:

في قولِهِ تعالى: ﴿سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ أُضيفت الصِّفةُ إلى الموصوف؛

لقصدِ المبالغةِ في بيانِ قوَّةِ الاتِّصافِ، كأنَّه نفْسُ السَّواءِ[1]، وأصلُ الكلام: فقد ضلَّ السَّبيلَ السَّواءَ؛ أي: الطَّريقَ المستقيمَ الواضح؛ لأنَّ سواءَ السّبيل هو وسطُ الطّريق، وهو الطّريقُ الجادَّةُ الواضحة، فلمّا أضافَ الصّفةَ إلى الموصوف وقال: ﴿سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ أفادَ المبالغةَ في الضّلال؛ فإنَّ الضّلالَ عن استقامة الطَّريقِ أبلغُ في أسلوبِ التَّحذير والتَّفظيع من الضّلالِ عن الطّريقِ المستقيم.

الضَّلالُ عن استقامةِ الطَّريقِ أبلغُ في أسلوبِ التَّحذيرِ مِن الضَّلالِ عن الطَّريقِ المستقيم

توجيهُ تَعْديةِ الفعلِ ﴿ضَلَّ﴾ بنفسِه:

تَعَدّى الفعلُ ﴿ضَلَّ﴾ بنفسِه، وهو من الأفعال اللّازمة الَّتي تتعدّى بحرف المجاوزة (عن)، إلّا أنَّه عدّاه هنا بنفسِهِ فقال: ﴿فَقَدۡ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾، ولم يقل: (فقد ضلَّ عن سواء السّبيل)، ونكتةُ ذلك أنَّه ضمَّنَ الفعلَ اللّازم معنى المتعدّي؛ ليفيدَ تكثيرَ الدَّلالة، ويكونُ المعنى: ضلَّ عن سواء السّبيل وأضلَّ سواءَ السّبيل؛ أي: أخطَأ الطَّريقَ المستقيمَ[2] بسببِ فعلِه القبيح. وذهب بعضُ المفسّرين إلى أنَّ ﴿سَوَآءَ﴾ منصوبٌ على الظَّرفيَّة المكانيَّة[3]، كما ذهب بعضُهم إلى أنَّ الفعل ﴿ضَلَّ﴾ يأتي لازمًا ومتعدّيًا[4].

استعمالُ الأفعالِ في التَّعديةِ واللُّزومِ خاضعٌ للمعنى المقصود

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

المودَّة والمحبَّة:

الفرقُ بين المودّة والمحبّة هو: أنَّ المودّة هي الحبُّ الشَّديدُ الَّذي يكونُ فيه صلةٌ وبذلٌ وعطاء، وتعلُّقٌ وملازمةٌ للشّيءِ، ورغبةٌ في حصولِ الَّذي يَوَدُّهُ، مع وجودِ أثرٍ ظاهر.

المودَّةُ تَظهَرُ للآخَرينَ بعملٍ يُبرِزُها، والحبُّ ما كانَ كامِنًا في النَّفْس

أمّا الحبُّ فهو ما يكونُ كامِنًا في النّفس، وقد يكون له أثرٌ ظاهر، وقد يبقى كامنًا من غيرِ أثرٍ.

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السليم: 1/ 145، والشّهاب، حاشية على تفسير البيضاوي: 8/ 184.
(2) الزّمخشري، الكشاف: 4/ 512، والبيضاوي، أنوار التّنزيل: 5/ 204.
(3) السّمين الحلبي، الدّر المصون: 10/ 301، والقونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 19/ 45.
(4) الشّهاب، حاشية على تفسير البيضاوي: 8/ 184.

وقد تأتي المودَّةُ بمعنى محبَّةِ الشَّيءِ الَّتي يُقارِنُها التَّمَنّي[1]، ومنه الوَدادةُ مصدرُ وددْتُ أوَدُّ، وهو مِن الأُمْنيَّة[2]، ووَدِدْتُ أنَّ ذاكَ كانَ، إذا تَمَنَّيْتَهُ[3]، والمحبَّةُ ليس فيها تمنٍّ[4].

الابتِغاء والطَّلَب:

الابتِغاءُ يُلحَظُ فيه السَّعيُ في الطَّلبِ والاجتهادُ، والطَّلبُ أعمُّ من ذلك

الابتغاءُ يدلُّ على الاجتهادِ في طلبِ حاجةٍ مقصودةٍ والسَّعيِ في حصولها، ويُشعِرُ اللَّفظُ بالاستمرارِ؛ لدلالتِه على الاجتهاد في الطَّلب مع القوَّة والشِّدَّة[5]. والبُغيةُ بفتح الباء وضمِّها: الحاجةُ[6].

أمّا الطّلبُ فهو مجرَّدُ الرّغبة في الحصول على شيءٍ مقصودٍ واستجلابِه من بعيدٍ، ولا يُفيد الاستمرار. ولمّا كان الطّلبُ يدلُّ على الفحصِ عن وجود الشّيء والسّعي في وجدانِه وأخذه فقد يكون المطلوبُ موجودًا وقد يكون غيرَ موجود. ففارق الطّلبُ الابتغاءَ؛ لأنَّ الابتغاءَ لا يكون إلّا في أمر موجود، فيُجتهد في تحصيلِه[7]، ولهذا قال: ﴿وَٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِيۚ﴾؛ للإشعار بأنَّ الحصول على مرضاةِ الله تعالى يتطلَّب الاجتهادَ. والمرضاةُ موجودةٌ، وإنّما يَظفَرُ بها مَن يسعى إليها ويَجِدُّ في الطَّلب والاجتهاد.

الإسرار والإخفاء:

الإسرارُ يكونُ بينَ اثنينِ فصاعدًا، والإخفاءُ يكونُ في النَّفْس

الإخفاءُ أبلغُ من الإسرار، وقد دَلَّ على هذا المعنى قوله تعالى: ﴿فَإِنَّهُۥ يَعۡلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخۡفَى ٧﴾ [طه: 7]؛ أي: أخْفَى مِنَ السِّرِّ[8]، فالإخفاءُ هو ما يُخفيه الإنسانُ عن الآخَرينَ قصدًا، والإسرارُ يكون بين

(1) الكفوي، الكليات، ص: 942.
(2) الأزهري، تهذيب اللغة: (ودد).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ود).
(4) الأزهري، تهذيب اللغة، والراغب، المفردات، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقي: (حبب، ودد).
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات: (بغى).
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة: (بغى).
(7) الرّاغب، المفردات: (طلب).
(8) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 517.

اثنينِ أو أكثرَ على سبيل الحفاظِ على المُسَرِّ به؛ ولذلك أتى بذكر الإخفاءِ بعد ذكر الإسرار على سبيل التَّعليل؛ أي: إذا كنتم تُسِرّون إلى الأعداء بالمودّة فاللّهُ يعلمُ الأخفى من ذلك، فما بالُكم بالسِّرِّ؟.

السِّرّ والنَّجْوى:

الإسرارُ يكونُ في المعاني والأقوالِ والأفعالِ، والنَّجْوى لا تكونُ إلّا كلامًا

النَّجوى: اسمٌ للكلام الخفيِّ الَّذي تُناجي به صاحبَك، كأنَّكَ ترفعُه عن غيرِه. وذلك أنَّ أصلَ الكلمة الرِّفعة، فالمناجاةُ فيها استخلاصٌ للمناجَى من بين الآخَرين[1].

والسِّرُّ إخفاء الشّيء في النَّفس، ولو اختفى بسِتْرٍ أو وراءَ جدارٍ لم يكن سرًّا، ويقال: في هذا الكلام سرٌّ، تشبيهًا بما يَخفى في النّفس، ويقال: سرّي عند فلان، تريدُ: ما يُخفيه في نفسه من ذلك. ولا يقال: نجوايَ عنده، والنَّجوى تتناولُ جملةَ ما يُتناجى به من الكلام، والسِّرُّ يتناول معنى ذلك. وقد يكون السِّرُّ في غير المعاني مجازًا، تقول: فَعَلَ هذا سِرًّا، وقد أسرَّ الأمرَ[2]، فقد يُطلَقُ السّرُّ على الأفعال كما يُطلَقُ على الكلام المكتوم عن الغير، ومنه قوله تعالى: ﴿تُسِرُّونَ إِلَيۡهِم بِٱلۡمَوَدَّةِ﴾ على معنى إلقاءِ المودّة بالخفاء، وأمّا النّجوى فلا تكونُ إلّا كلامًا.

(1) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي: (نجو).

(2) أبو هلال العسكري، الفروق اللغوية، ص: 63.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الحادي والستون،
سورة الحَشر من الآية 11 إلى سورة المُنافِقُونَ الآية 04
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1447هـ - 2026م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2026م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الحادي والستون، سورة الحَشر من الآية 11 إلى سورة المُنافِقُونَ الآية 04
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2026.
مج. 61 ، 814 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-645-72-6
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 61 : المجلد الحادي والستون، سورة الحَشر من الآية 11 إلى سورة المُنافِقُونَ الآية 04.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-645-72-6
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-6860354 بتاريخ 2026/01/07م،
الهيئة الوطنية للإعلام، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
"تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام"
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي "النجار"